

دكتور

محمد بن عبد الرحمن الجبيل

نظم إسلامية

١٣٧٦

دراسة للفكر الاقتصادي

عند أحمد بن علي الديبجي

وذلك من خلال كتابه

“الفلاكة والمفلكون” أي “الفقر والفقراء”

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

دار

معاذ للنشر والتوزيع

الرياض

دراسة للفكر الاقتصادي عند أحمد بن علي الدجني وذلك من خلال كتابه "الفلاكة والمفلكون" أي "الفقر والفقراء"

دكتور
محمد بن عبد الرحمن الجبيل
الأستاذ المشارك بقسم الاقتصاد الإسلامي
بكلية الشريعة بالرياض

١٤١٣ - ١٩٩٢ م

دار
معارف للنشر والتوزيع
الرياض

ت: ٤٥٩٥٤٠٢ - ٤٥٨٦٠٢٧

دائرة الوثائق العربية للطباعة
لصاحبها: محمد عبد الزرق
٩٠ كنيسة النور - شارع الجليل
تليخه: ٩٣٤٠٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ .

« صدق الله العظيم »

(سورة التوبة الآية ٦٠)

اهداءات ٢٠٠١

الدكتور / القطب محمد طلبة

القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
تبييننا محمد وآله وصحبه وسلم . .

وبعد :

فإن الشريعة بحمد الله وافية بكل متطلبات المسلم في كل زمن وأن علماء
هذه الأمة بما رزقهم الله من التقوى والتبحر في العلم وخاصة متقدميها
وأرجو أن يكون ذلك الوصف في متأخريها أقول أنهم برزوا في مجالات
كثيرة ومن بينها معرفتهم الجيدة والبصيرة في الفكر الإقتصادي وإن لم
يسمونه باسمه لأنه لم يوجد بعد « مصطلح هذا العلم وتسميته » وإن وجدت
نصوصه ومبادئه . .

ولقد كان للفكر الإقتصادي الإسلامي أهميته من خلال ما سطره
علمائنا الأفاضل في كتبهم تبعاً وأصالة ، استطراداً وقصداً . . فكان من
واجبنا نحن المسلمين أن نبرز آراءهم النيرة الجيدة التي تمكث حبيسة بين
دفات الكتب ويسرقها علماء الغرب والشرق وينسبونها لأنفسهم ظلماً
وعدواناً وما درينا بأن هذه بضاعتنا ردت إلينا وهم يعلمون يقيناً أننا
غافلون عن ذلك وأتينا لندري أن في كتب علمائنا شيئاً من الآراء
الإقتصادية الجيدة المدعمة بالكتاب والسنة والأدلة الفعلية المقنعة ، بل إنهم
لا يريدون أن نقرأ هذه الكتب خوفاً من اكتشاف مصدرهم الحقيقي في

المعرفة الاقتصادية ولكن المد الفكري الإقتصادي الإسلامي والصحة
الإقتصادية عن علماء المسلمين جعلتهم يرجعون ويراجعون كتب علمائنا
السابقين ليروا السكروز التي تحتاج إلى إخراج وليروا العقول التي استنارت
وقذف الله في قلوبهم الحكمة الصادقة والشاذة الفذة . .

وكان من واجبي وأنا من اهتموا بالفكر الإقتصادي الإسلامي من
خلال رواه الأفاضل علماءنا السابقين أن أسلك هذا المسلك وقد بدأت في
رسالة الدكتوراه فأشرت إلى الكثير من علمائنا وأخذت نماذج من علمهم
في الإقتصاد وكان من بينهم أحمد بن علي الدلجي الذي كتبت عنه ما يهاب
ضفحتين أو ثلاث فشئتني هذا العلم اليسير من الكتابة إلى أن أدرس كتابه
« الفلاكة والمفلوكون » أي « الفقر والفقراء » من الوجهة الإقتصادية
ولأفالك كتاب ذخيرة كاملة في أكثر من علم فقيه قبضة جيدة من تاريخ
التشريع وفيه آثاره من علم التاريخ نفسه وفيه تراجم مفيدة بل إنها تشكل
أكثر من نصف الكتاب وفيه تحليل فلسفي جود لأمر أخرى لا تتعلق
ببحثي الذي أكتب مقدمته الآن فقصرت دراستي هذه عن أفكار الدلجي
الإقتصادية ووقفت من الدلجي موقف القارئ المتأمل والناقد حسب
استطاعتي مهدياً وجهة نظري منتصراً للحق ما استطعت ولا أدعي في بحثي
هذا أنني قدمت شيئاً ذا أهمية ولكن أدعي أنني فتحت طريقاً لدراسة
الدلجي من ناحية فكره الإقتصادي وحبذا لو أن الباحثين أو قسماً منهم
تفرغوا بعض الوقت لدراسة بعض الكتب المتقدمة على هذا النحو إذن
تبين سبق علمائنا رحمهم الله في كل الميادين ولا نكشف لأبنائنا المسلمين فضل
السابقين ولدخل الفكر الإقتصادي بكامله ضمن تاريخ الفكر الإقتصادي
بل كان مقدمة له وعنواناً بل كان مهيمناً عليه لأنه مستمد من كتاب الله
وسنة رسوله . .

— ٧ —

وهذه المقدمة في الواقع قد تفصح عن نتيجة هو أن الدلجى وأمثاله
نسيناهم نحن المسلمين فأخشى أن يتسلط أبناء الغرب الكافر ويشورا على^٤
فكرهم فأما أن يكتبوا عنهم كتابة فاسدة حاقدة كعادتهم وأما أن يسرقوا
ما عندهم من علم ويدعوه بهم وهذا ما حصل بالفعل ..

وأرجوا في الختام أن تكون في هذا البحث مع ما بذل فيه وقت وجهد
فائدة وإلا فالسماح من الغلط فكلنا معرض لذلك . .

والله الموفق والهادى سواء السبيل .

دكتور

حمد بن عبد الرحمن الجنيدل

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل للبحث

حياته :

أحمد بن علي الدجلى^(١) لم يعرف تاريخ ميلاده إلا أن المؤرخين له ذكروا تاريخ وفاته سنة ٨٣٨ هـ ثم قالوا إن عمره في السبعين ظناً حين توفي فيسكون مولده على وجه التقريب بسنة ٧٦٨ هـ تقريباً^(٢) . .

وحياته الخاصة لا يعرف عنها إلا القليل ونذكر من أهم صفاته الخلفية مهارته في الفهم وصحة عقله وذهنه^(٣) ، ونسب إليه عدم التدين حتى رمى بالزندقة وأهدر دمه عدة مرات بفتوى شيخ من مشايخه^(٤) . .

تولى وظيفة الشهادة وهي وظيفة هامة في عصره وفي العصور السابقة له وتدل على فضل من يتولاها وقوة شخصيته ، وقد هيأت له الوظيفة فرصة الشهرة والوصول إلى الغنى^(٥) .

(١) نسبته إلى دجلة من مدن مصر السابقة .

(٢) انظر الدارس في أخبار المدارس فهو أول من ترجم له حسب اطلاع ج ١ ص ١٤٧ . .

(٣) على عكس ما توقعه الأستاذ الدكتور محمد صالح في مقاله « الفسك الاقتصادي العربي في القرن الخامس عشر الميلادي فقد وصفه ببلادة الذهن وتغلفه عن زميله ابن خلدون والمقرئ وكاتبه الفلاكة يدل على نباهته وذكائه . .

(٤) نفسه ج ١ ص ١٤٧ وشيخه الذي حكم بإراقة دمه هو ابن حجر . .

(٥) نريد أن نصحح هنا من مقال الدكتور محمد صالح السابق ذكره من وصفه بالفقر فلم يكن فقيراً بل كان غنياً مبدداً للمال . .

وتولى مشيخة الخانقاه خاتون بالشام وتولى وقفها ولكن إشرافه عليها كان سيئاً وغير حميد فكان لخفة دينه يؤذى الصوفية المقيمين بها ولم يعجبه الوضع في هذه الخانقاه فباعها نازير مهلبغ جيد للقاض ، ابن مجنون ، ورجع إلى مصر مرة أخرى ليتولى وظيفة الشهادة مرة أخرى عند القاض ، الحنبلي ويبدو أنه لم يعيش طويلاً حيث توفي بعد رجوعه بمدة قصيرة^(١) . وتولى قبل وفاته التدريس بأدم مدرسة هي مدرسة الاتابكية^(٢) . . كما تولى التدريس في الجامع الأموي . وقالوا أن من أبرز صفاته أنه كان مشغولاً بالناس شديد السخرية والاستهزاء بهم . .

(١) الدارس في أخبار المدارس للنعيمي ص ١٤٨ / ١٠ .
 (٢) انظر تاريخ هذه المدرسة في كتاب الدارس ص ١٤٣ / ١٠

حالة مصر الاقتصادية في عهد الدلجى

عصر المماليك الجراكسة :

خلصت مصر للمماليك الجراكسة فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى الثامن الهجرى وظلوا فى حكمهم مائة وخمسة وثلاثون عاما وكانت تسود بينهم روح التضامن والعزم على الاحتفاظ بأكبر نصيب من الجاه والثروة ولا يصل الأمير للحكم إلا إذا حسب حسابا لحوالاء الأمراء وما لاهم وبث بينهم روح العداة والتنافس ..

وقد عانت مصر آلاما وتحملت مآلما مغارم بسبب تقابل هذه الشيع المختلفة فى الشوارع والأزمة وانطلاق سراخ رجال العسكرية يعينون فى الناس لا يراعون حرمة مما أفضى إلى سيادة الاعز وعدم الطمأنينة بين الناس وكان المماليك من الأجانب الذين غلظت أكيادهم وقتت قلوبهم فتجردوا من كل عطف وإشفاق نحو الأهالى ولم يكونوا كلهم من الجراكسة بل كان فيهم سلايط من اليونان والترك ، ولم يكن العساكر أحسن حالا من رؤسائهم فكانوا مثاهم ينتهكون الحرمات حتى كان الفلاحون يخشون جلب ماشيتهم وحاصلاتهم إلى أسواق القاهرة حتى لا يصادروها هم بأنفسهم أو أعوانهم بسعر إلزامى لتخزينها فى القصور ، وكانت الحكومة غير مهيبة الجانب فى أطراف المملكة ، وكان العدل يباع كالسلعة يختص به أكبر مزيد .. وانتابت البلاد من آونة لأخرى الأوبئة والطواعين والغلاء بسبب قصر مد النيل ..

سلطان تقي ولسكن ؟

لقد وقعت المآلما الاقتصادية فى عهد السلطان الماؤيد وهو العصر

الذى عاش فيه الدجى - فمع اتصاف السلطان بالعلم والتقى والدين والبعد
عن حب الظهور والميل إلى التفتش ، نقول ومع ذلك وبرغم هذه الصفات
الحميدة كان قليل الحول أمام وزرائه والمواطنين ولكنه مع حبه لنصر
المظلومين لم يفعل شيئاً . .

الدجى شاهد عصره :

هكذا عبر الدجى وهكذا خرج كتابه منبئاً عن هذا العصر وكأنه ثورة
اجتماعية رمزية من هذا المؤلف وكأنه تسليية وعزاء لهؤلاء المفلوكين
« الفقراء » والمغلوبين على أنفسهم . .

ليس الدجى وحده فى مصر :

بل هناك « المقرئى » صاحب الخطط وكشف الغمة برحمة الأمة الذى
درس فيه والمناهرة الاقتصادية والكوارث المحيطة بمصر فى عصره فى مصر
وقبل عصره . .

مؤلفاته

شهد العلماء ببراعته وفصاحته وقوة حجته ، ونرى أن من يتولى الشهادة عند القضاة فقد وصل إلى مبلغ جيد من العلم والشهرة في العلم وقد تذهب بالمذهب الشافعي بحسب الراجح لدينا — لأنه تولى التدريس بمدرسة من مدارس الشافعية وهي المدرسة الاتابكية ولأنه درس الفقه على شيخه ابن حجي سنة ٨١٨ هـ وهو شافعي ولأنه أخيرا ألف في الفقه على المذهب الشافعي . ولهذا ذكر العلماء له عدة مؤلفات أثنى عليها العلماء ولم يصل إلينا منها سوى كتابه « الفلاحة والمفلوكون » . .

١ — فوائد على شرح البخارى . . ولم يذكر مترجموه أى شرح هذا ، ولكن يظهر لى أنه فتح البارى لأن مؤلفه الامام ابن حجر من أشهر علماء الشافعية هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن ابن حجر يسبق عصر الدجلى بقدر يسير فهو أقرب العلماء إلى المؤلف ثم أنه أخيرا من أطول شروح البخارى . .

٢ — مختصر تسكلم فيه على قول الناس فلان هالك وهو فى علم رجال الحديث ونقدهم وفيه فوائد كثيرة (١) . .

٣ — الجمع بين الوسيط والخادم الأذرعى وهو فى الفقه الشافعي وحسب علمى ليس هناك كتاب بأسم المتوسط بل الذى أعرفه كتاب الوسيط للامام الغزالي رحمه الله فى الفقه . يقول العلماء قد بانت براعته فى هذا الكتاب وقوة عارضته وقد اقتناه شيخه أبو الفضل ابن حجي حتى وجد ضمن مكتبته بعد وفاته قال ذلك للامام أبو الفضل الشيرازى وأنه

(١) ذكر ذلك الدارس للنعيمى ص ١٤٩/١٠٠

اشترى منه مجلدات أربعة من تركة الشيخ المذكور وهذا يدل على فضل الرجل الزائد ..

٤ - الفلاكة والمفلوكون :

وهو الذى نحن بصدد دراسته .. والفلاكة والمفلوكون أى الفقير والفقراء ، لماذا سمى الدلجى كتابه : الفلاكة والمفلوكون ؟ :

— حول التسمية : قال الدلجى فى مقدمة كتابه المفلوك وفى لائحة الأعاجم يريدون بها (الرجل غير المحظوظ المهمل - بفتح الميم - فى الناس لأملاقه وفقره » (١) ..

ولم ترد فى صحاح الجوهري ولا فى القاموس للزيدى .

— ولكن مع ذلك يرى الدلجى : أن هناك قربا بين ما فى القاموس من قوله « فلك تفليكا إذا لج فى الأمر فانه يمكن أن يجعل مصححا لهذا الاستعمال وبيانه أن اللجاج لازم للاملاق فانه يلزم من الاملاق وعدم الحظ اللجاج فيكون من باب اطلاق اللازم وإرادة الملزوم (٢) ..

— والدلجى يرد على اختياره هذا بقوله : هو مع ما فيه من التكلف مردود بأن فعل تفعيلا بالتضعيف لا يصح أن يكون اسم المفعول منه بزنة مفعولا ..

— يقول الدلجى - والذى نراه . أنه مأخوذ من الفلك الذى هو

(١) ص ٤ من الكتاب .

(٢) ص ٤ من الكتاب .

جسم محيط بالعالم فكأن الفلك يعارض غير المحظوظ في مراده ويدافعه عنه (١) ..

لماذا اختار الدجى « الفلاكة » دون الاملاق أو كلبة الفقر ؟

يجيب الدجى على هذا السؤال بقوله أن الألفاظ الثلاثة الاملاق والفاقة والفقر ونحوها نص صريح في مدلولها بخلاف لفظه « الفلاكة » والمفلوك فإنه يتولد منها بمعونة القرائن معان لائقة بالمقامات على كثرتها وتفاوتها (٢) ..

١ - وماذا في الكتاب ؟ :

لقد اتبع الدجى بحق في بحثه هذا المنهج العلمى الدقيق للبحث مستخدماً المشاهدة والبراهين الاقيسة والاستقراء فلم يترك قضية وتركها مجرد دعوى بلا برهان ولإثبات ..

٢ - عن الكتاب والسكاتب :

وقد تجلّى في أسلوب السكاتب خلق العالم تواضعاً وعرفاناً بقدره وحدوده وإمكاناته فهو لم يدع أنه حقق الكمال وأصاب كبعد الحقيقة في كل ما قاله ولكنه بعكس ذلك يقول : « وأنا أعتذر عما لا يوافق الغرض ولا يصيب الغرض » (٣) وفي آخر الكتاب يقول « هذا آخر ما تيسر لى كتابته في هذا الغرض مما سهل ومما جضر وفي النفس من معاودته وبسط القول فيه » (٤) ..

(١) ص ٤ من كتاب الفلاكة والمفلوكين للدجى .

(٢) ص ٤ المرجع السابق .

(٣) ص ٢ من كتاب الفلاكة والمفلوكين .

(٤) ص ١٤٤ من المرجع السابق .

٣ - مجمل الكتاب :

الكتاب يتناول موضوع الفلاحة - الفقر - وأوضاع المفلوكين - الفقراء - بمعنى أنه يتحدث عن قلة الحظ الديوى وما يتسهم به صاحبه والأسباب التى تجعل من هؤلاء أغلبية الجنس البشرى ..

فتناول : بعد تحدته عن سبب تأليف الكتاب تناول تحديد معنى الفلاحة والمفلوكون ثم بعد ذلك فصل القول فى دحض الشبهة والتعاملات التى يتعمل بها المفلوكون للإبقاء على فلاكتهم فلا عذر ولا حجة للمفلوك فى التعلق بالزهد والتوكل لترك الأسباب والاملاق فى العيش ..

وبعد ذلك تحدث عن الآفات والنتائج السيئة التى تنشأ عن الفلاحة ثم حاول أن يرى الأكثر لصوقا بالفلاحة فذهب إلى أنهم العلماء ثم عقد فصلا لبيان أسباب الفلاحة وفصلا آخر بين فيه استلزام الفلاحة المالية للفلاحة الحالية المعنوية ..

٤ - الدلجى كان أحد المنظرين لعلم الاقتصاد والدليل على ذلك :

إذا سلمنا بأن العلم إما وصف لشيء قائم أو تفسير أو تحليل له من حيث جذوره وأسبابه ونتائجه أو توجيه لهذا الشيء إلى الجهة التى يراها الباحث .. أقول : إذا سلمنا بذلك - وهو مسلم به لدى غالبية العلماء - من أن أى علم له وصف وتحليل وتوجيه ..

فان الدلجى بهذا الكتاب الصغير الذى سماه هو بنفسه « مسودة » :

و « أنموذجيا » و « برنامجا » وهذه عبارته : « فذوقك مسودة أو

نموذجاً أو برنامجاً أو فتحاً لباب عسى أن يلج فيه من حركة الله على ذلك» (١) ..

فقد جمع الدلجى فى بحثه هذا بين النواحي الثلاثة للبحث العلمى . .
وهنا نتناول بعض المسائل التحليلية والنظرية التى تناولها الدلجى والتى تحتل
أهمية كبيرة فى علم الاقتصاد مما يعنى أن الدلجى كان أحد المنظرين الأوائل
لعلم الاقتصاد سابقاً بقرون عدة آدم سميث وتلامذته ونظرائه . ونشير
إلى نماذج من ذلك :

(أ) ظروف الطلب وعلاقته بالعرض : « التخصص وتقسيم العمل » :

يذكر الدلجى قاعدة إقتصادية أو قانوناً إقتصادياً يتناول التخصص
وتقسيم العمل أو ظروف الطلب أو تطور الصناعات وتقدمها أو تفاوت
البلاد فى الحرف والصناعات حيث يقول « وقاعدة الحرف أن موجوديتها
وكثرتها ومهارة أهلها يدور مع التمدن والحضارة فكلما ازداد القحط
تمدنا وحضارة ازدادت الحرف إحكاماً ومهارة . . فلذلك لا تجد فى القرى
من المصنوعات ما يوجد فى المدن ولا فى صغير المدن ما يوجد فى كبيرها .
(لما أن رواج الحرف وتطورها هو سر موجوديتها وأحكامها لأن الناس
لا يضعون سلعهم - حيث لا تقبل أو لا تتفق وكبر المدينة وكثرة أهلها
يستلزم الاتفاق لا احتياج الناس واختلاف أغراضهم وهمهم احتياجاً على
البذل والتناوب إلى المصنوعات - واستلزام ذلك لحكم البدلية والنوبة
عدم الشعور والخلود واقتضاؤه للاتفاق لأن توزيع المجموع مع الكثرة على
البذل والنوبة مستلزم لذلك لا محالة » (٢) . .

(١) ص ١٤٤ من الكتاب .

(٢) ص ٤٨ من الكتاب .

— هذا تحليل إقتصادي دقيق لعلاقة العرض بالطلب ولدور القوة الشرائية والسيولة وأحجام السكان في تزايد الطلب على السلع . كذلك فهو من جهة يبرز دور المنفعة في إضفاء قيم السلع المختلفة وهو في ذلك يعمق ويؤكد ما قاله معاصرة العالم الاجتماعي « ابن خلدون » في مقدمته .

٢ — قدم قاعدة أو قانونا يكشف عن علاقة الدخل بالانفاق الاستهلاكي:

مبيناً أنه كلما زاد الدخل زاد الاستهلاك وهذه عبارته : « وأيضاً يقال على وجوه المعاش الثلاث أنه كلما تجدد للإنسان دخل حدد له صرفاً . . أما للمباهاة أو إفراطاً في الشهوات أو خوفاً من سوء القالة أو إكراه مبعوض أو لتجديد أمور في صرفه » (١) . .

أى أن الاستهلاك يتغير تابع للدخل وهذا ما أكدته النظرية الاقتصادية الحديثة على يد كينز ومن بعده . ويضاف إلى ذلك أن الدلجى بين أن العوامل المسؤولة عن زيادة الاستهلاك بجوار الدخل أنها البدائل الاجتماعية والعوامل النفسية وعوامل أخرى كالمباهاة والترفيه على الأمثال وهناك الاستهلاك الترفى وهناك الخوف من الرمى بالنجل . .

أفلا يكون الدلجى بذلك قد سبق كينز ودوز نيرى وغيرهما من قادة النظرية الاقتصادية الكلية بقرون عديدة . .

وقفه تمويل للدلى

لا شك أن الدلى بهذا الكتاب صغير الحجم قد أسهم إسهاماً كبيراً في الدراسات الإقتصادية ويمكن التحليق على الفكر الإقتصادى للدلى فيما يلى :

أولاً : الكتاب من حيث موضوعه الأول من نوعه :

الدلى رائد من رواد التنمية : وهو دراسة في الفقراء والفقير يعد الأول من نوعه - على حد علم الباحث - فلم يسبق الدلى بكتاب متكامل يتناول هذا الموضوع لامن علماء المسلمين ولا من علماء الشرق والغرب أى أنه بذلك يعتبر رائداً من رواد علم التنمية والتخلف ويكفى أن نعلم أن هذا المجال لم يطرق للبحث العلمى الجاد فى الغرب إلا فى النصف الثانى من القرن العشرين . .

ثانياً : الكتاب من حيث معالجته للمشكلات المثارة :

نلاحظ أن الدلى قد اتخذ منحنى معيناً فى تناوله لهذه القضية « قضية الفقر والفقراء » فقد نظر إلى الفقر والفقراء فهى مشكلتهم نشأت بأيديهم ومن ثم فهم مسؤولون عنها - بيد أن الحق أنه ظاهرة اجتماعية من صنع المجتمع أو هو من صنع المسؤولين والأغنياء ولو نظر الدلى هذه النظرة للموضوع لجاءت المعالجة مختلفة والنتائج أجد متباينة بل الثمرة أعرق . . ثم أنه فى ذلك قد لا يتمشى مع قوانين المنهج الإسلامى فى نظره للفقر والفقراء - كما قدمنا - فى دراستنا فى ملاحظاتنا التى طرحت عن أسباب الفقر وتبين أن هناك أسباباً خارجة فى جملتها عن المفلوكين بيد أنهم قد يشاركون فى

ذلك إذا بدا منهم البطالة والخنول والتوكل المزعوم الذى فهموه . .

يضاف إلى ذلك تناوله لعلاقة العلم والعلماء بالفلاكة والغنى وأنه فى عصور الإسلام الأولى عصور العلم والمعرفة والإزدهار العلمى كان وراء ذلك عامل اقتصادى وضمانة المكافآت والجوائز التى كان يتلقاها العلماء وقد بينا فى الرد عليه أن هذا مجاف للحقيقة . . مع التسليم بأهمية مواقف الحافز والتشجيع العلمى لازدهار العلم والعلماء ولكنها عوامل ثانوية جداً لا يهتم بها العلماء كثيراً . .

ثالثاً: هل العوامل التى أثارها الدجى كمسببات للفلاكة هى حقاً عوامل للفقر والفلاكة ؟ . .

نستطيع أن نقول بأن نعم بل ونقول أكثر من ذلك أن هذا يعد أجود فصل قدمه الدجى فى كتابه وبه فقط يمكن اعتبار الدجى رائداً من رواد علم التنمية الإقتصادية . .

وتفصيل ما أجملناه :

أن الدجى تناول مجالات النشاط الإقتصادى ومصادر الكسب مصدراً مبدئياً مدنى ما يحيط بكل مجال من أمور تجعله أبعد من أن يحقق لصاحبه غنى وثروة وهو فى ذلك كله قد اكتشف لنا القوانين والنظريات والقواعد التى لها خطورتها فى عمليات التقدم والتنمية . .

فما ظننا برجل يعيش فى القرن الثامن الهجرى « الرابع عشر الميلادى » أى فى الوقت الذى كان الفللام يقيم فيه على أوربا وهو ما سمي بمصطلح المصور الرسمى نقول ما ظننا برجل يقول « إن توفر القدر الكبير من

رأس المال - السيولة - شرط لنجاح النشاط التجارى حتى يجابه به التاجر مختلف الحالات من الرواج والكساد . . ويقول : « كما أنه محتاج إلى خبرة ودراية ومعرفة على درجة عالية حتى يستطيع أن يمارس نشاطه التجارى بكفاءة وفعالية . . »

وأن الواقع يصدق ذلك ويؤكدده :

والسياسات الاقتصادية والإدارية دوراً : حاسماً في نجاح العمليات الاقتصادية وإحفاقها . .

أليس هذا هو ما نراه اليوم رأى العين في دنيا العالم المتقدم على حد سواء ؟؟

إن الدلجى بذلك يرتقى بالفسكر الإقتصادى درجات حيث يدخل عناصر غير إقتصادية فى صلب عمليات الإنماء وهذا ما أخفق فيه الفسكر الغربى رداً طويلاً من الزمن ولما يزل بعد إلى حد كبير . .

والعجيب أن الدلجى قد عمم هذا العامل على كافة مجالات النشاط الإقتصادى والتجارى والصناعى الخ . .

يضاف إلى ذلك إدخاله عامل القيم والأنماط الإجتماعية كعامل . حاسم فى إنجاح أو إفشال النشاط الإقتصادى مما لم يلتفت إليه إلا فى العصر الحاضر . .

لنسمع الدلجى يقول « ثم جهات المعاش الثلاث مفتقرة إلى التعاون والتناصح وقد انقطعاً من كافة البشر أو عامتهم لاتساع موجبات التباغض والتحاقد لكثرة مة تضييات التجاسد » (١) . .

إذن لابد من صلاح البيئة والجو الاجتماعى لضمان نجاح عمليات التقدم :

ومعنى ذلك أنه أدخل منذ وقت مبكر جداً فى صلب نظريته التنمية الإقتصادية عناصر أخرى خارج النطاق الإقتصادى وهو بذلك توصل لما يقوله علماء التنمية اليوم بكل أسى وحسرة من أن من أسباب إخفاق نظرية التنمية الحديثة خلوها من العناصر غير الإقتصادية . .

« ولأول مرة » ثم إن الدلجى وربما لأول مرة فى التاريخ الإقتصادى يشير إلى تواجد نوعين من الأعمال أعمال إقتصادية طبيعية من زراعة وتجارة وصناعة وأعمال غير طبيعية يقوم بها بعض الناس بهدف الكسب والحصول على الثروات والدخول ويضرب الدلجى لهذا النوع أمثلة كثيرة وعديدة رابطاً لها رابطاً مباشراً واضحاً بالآثار والظواهر الإقتصادية وبين أن شيوع مثل هذا الكسب يعتبر أحد العوامل المسؤولة عن شيوع الفلاحة - الفقر - من النوع البشرى ..

والدلجى بهذا يبذر البذور الأولى للفكرة الإقتصادية التى عاشت فيما بعد على يد علماء الإقتصاد الغربيين من التفرقة بين الأعمال المنتجة والأعمال غير المنتجة مع وجود فوارق لا تخفى على من له صلة وثيقة بعلم الإقتصاد..

رابعاً : وللقارىء الكريم ملاحظة نثيرها نيابة عنه :

فقد يلاحظ القارىء الكريم أننا فى بداية بحثنا أشرنا إلى أن الدلجى قد أرجع المسؤولية على الفقراء أنفسهم دون أن يحمل المجتمع أو غيره أية مسؤولية فى ذلك واعتبرنا هذا قصوراً وهفوة من الدلجى ، لكننا عند مناقشة ما قدمه الدلجى من عوامل وأسباب الفقر ، فإنه يستنتج القارىء - للأسباب أنه ذكر عوامل أخرى ليست من عمل الفقير ولا حيلة له فيه.

وهذا يمثل تناقضاً مع ما سبق أن أشرنا إليه . . ونحن نتفق مع القارىء فى تلك الملاحظة حيث أن معظم العوامل التى ذكرها الدلجى لا ترجع إلى المفلوك نفسه بل ترجع كما تبين إلى التلثام والمجتمع والأمر الطبيعى كعوامل الجو والمناخ والكوارث . .

ومهما يكن من أمر فإن الدلجى وإن كان ذلك يعتبر منه هفوة منهجية إلا أن تناوله لهذه الأسباب وتحليلها هو فى حد ذاته عمل طيب وجيد بغض النظر عما قد يكون فيه من معارضة لما سبق أن قرره . .

وقفه حول التراجم

تحدث مع الدلجى عند تراجمه للعلماء التي اختارها وقد حصرها في العلماء مفلوكين والواقع أننى بقراءتى للتراجم وادعى بأنهم :
بأنهم :

(أ) في التراجم بعد واقع ما هدف له الدلجى :

فمثلا قضية الزهد : اتصف العلماء في أغلبهم الذين ذكرهم بالزهد والتقليل من الدنيا ومع ذلك سماهم فقراء مفلوكون .. فإذا كان وصفهم بأنهم فقراء من باب الفقر الاختياري فذلك نوافقه عليه أما أنهم فقراء لأنهم لم يجدوا بداً من الفقر فهذا موقف سبق الرد عليه .. ونذكر منهم الخليل ابن أحمد الذي وصفه بقوله / كان متقللاً من الدنيا صبورا على العيش الخشبي الضيق وهذا يدل على زهده وورعه مع أنه لو أراد الغنى والكسب والطول لحصل عليه ..

الامام الترمذى : لم يكن في الشافعية في وقته رأس منه ولا أروع وكان من التقليل على حال عظيم إلخ حديثه عنه (١) ..

ابن مالك النحوى (٢) : انصرفه عن الدنيا ، ومن باب الزهد والورع ولا ملازمة بين الزهد والفلاكة ...
واقراً ترجمة « المازنى » (٣) ..

(١) صفحة ٦٦ من السكتاب :

(٢) ص ٧١ من السكتاب .

(٣) ص ٧١ منه .

تراجم أخرى متناقضة:

أولاً: الغنى^(١): بل أن الدلجى نسب الفقر والفلاكة لعلماء اشتروا بالغنى وقد أثبت هذا بنفسه في ترجمتهم:

(أ) كيحيى بن أكرم : فإن ترجمته تشهد بضد ما قصده المؤلف^(٢) .
(ب) خضر الكردي: له خطوة عند السلطان يزوره السلطان في الاسبوع مرتين^(٣): والسؤال هل هو سيء الحال مفلوكاً ؟

(ج) الحريري : شهرته بالغنى ولا تخفى على الدلجى فكيف أدخله ضمن المفلوكين . .

(د) البدر التستري : ثروته طائلة زائدة^(٤) .

(هـ) ابن طارق : من التجار^(٥) .

ثانياً : صفات أخرى :

(أ) ترجمة الضيف التلمساني : هذا الصوفي الفاسق وترجمته مضللة بل أن الدلجى لم يحسن حيث أدخله في الترجمة مع هؤلاء العلماء الأفاضل بل هو من التوادين ومتشبهة إلى العلماء ادعاء فأين منه العفة وكرم الأخلاق . .
(ب) القاضى الفرغيع : قلت بل هو قاضى ساقط فاسق لا علاقة له بما نحن فيه . .

(١) وقارن بصفحة ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) ص ٦٦ من الكتاب .

(٣) ص ٧٨ من الكتاب .

(٤) ص ٧٥ من الكتاب .

(٥) ص ٨٩ من الكتاب .

(ج) ابن هانيء الأندلسي: شاعر الخمر والفلسفة وهو شاعر مجيد /
هذا هو ما وصفه الدجى به^(١) . . فمعلقة هذا بالكتاب ؟

ثالثا : صفة البخل :

وقد أطلق الدجى على بعض العلماء صفات كالبخل ثم أدخلهم ضمن
المفلوكين فليس كل بخيل مفلوك - فقير - بل أن البخل قد يكون سببا
من أسباب زوال الفقر ومنهم :

١ - مروان بن أبي حفصة^(٢) .

٢ - أبو جعفر النحاس^(٣) .

٣ - ابن الخشاب النحوي^(٤) .

ومع ذلك : فللمقاريء أن يتتبع ما كتبه الدجى من تراجم فهي تراجم
مختصرة ومفيدة ولكن أساء في الواقع في ترجمة لمن ذكرنا نماذج منهم
كالتلساني والرفيع وابن هانيء وغيرهم . .

(١) ص ٧٦ من الكتاب .

(٢) ص ٨٠ من الكتاب .

(٣) ص ٨٥ من الكتاب .

(٤) ص ٧٨ من الكتاب .

موقف الفقراء من فقرهم

وإذا أسهب الدلجى فى حديثه عن الفقراء لم يشأ أن يستكمل سطور كتابه دون الإشارة إلى موقف الفقير من فقره معلقاً من عنده ببعض الاشارات وغالبها الاشارة إلى ما يفرج همهم :

أولاً — فبالآدب تارة لعدم قدرتهم على كتمان أسرارهم وذلك حيث يقول « وكذلك أيضا قلها يطيق الانسان استدامة أقوال تحالف مافى باطنه وإذا اتضح أن فى الأقوال تنفس وراحة وتلذذ وتنقيص من آلام الباطل وضحت الحكمة فى انتصاب المفلوكين خطباء وشعراء (١) . .

ثانياً — بترجيح الكمالات النفسية على الكمالات المالية حيث يقول: « ومرة يسلون أنفسهم بترجيح الكمالات المالية بالأدلة الخطائية والتشبيهات الشعرية » (٢) . .

ثالثاً — ومرة يذكرون عوارضهم اللازمة بمقتضى الفلاكة ويصوغون لها أعاراً وحكمة وتشبيهات رائعة وكلمات فذة تنقيصاً من قبس صورة الفقر وليشغلوا الناس بما أوردوه من محاسن الكلام عن الفكرة فى صورتها الشنيعة (٣) . .

رابعاً — ومرة يحولونها إلى نسكت شعرية أو كلمات هزلية لذات الغرض السابق (٤) .

خامساً — ومرة يأمررون بالتناعة ويمجدونها . .

(١) ص ١٢٩ من كتاب الفلاكة والمفلوكون للدلجى .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٢٩ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٢٩ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٢٩ .

سادسا — ومرة يذمون الأيام ويتضجرون ويتململون ويستعجبون
ويشعرون ويفتنون وهم يحسنون صنعا — ويقول الدلجى حول هذا :
(إلا أنهم فى كل حال هم الخاسرون وهم ثقلاء يتعذرون لكن لا يعذرون)
أم تسألهم خرجا منهم من مغرم مثقلون (١) . .

والأغنياء موقف :

وكان الدلجى عادلا حين أشار إلى موقف الأغنياء وهو بنسبته رد
عليه حيث أنحى باللائحة على الفقراء أنفسهم قائلا فى كل كتابه (أتم السبب
فى فلاكتكم) فهو هنا يرد على ما جاء فى الكتاب حيث أن للماظم الاجتماعى
سبب رئيسى فى الفلاحة يقول الدلجى (والأغنياء عنهم بمعزل وعن العناية
بما قال الفقراء بألف منزل ، وقد أغناهم الفعل عن القول والفضل عن
الفضول والاعذار عن الاعتذار) (٢) .

وللشعر دولته وأهله :

نثر الدلجى شعرا كثيرا نقلت منه شيئا يسيرا ووضعت العناوين
من عندهى :

اعتراف :

إذا فات الفتى شيئا أضحى
بعيدا من مازجة القلوب
جمال الوجه وأو مال عظيم
يزين فى حضور أو مغيب

(١) من ١٢٩ من كتاب الفلاحة والفلسكون للدلجى .

(٢) المرجع السابق من ١٣٠ .

— ٢٩ —

فكشر المال يشفع في المادى
وحسن الوجه يشفع في الذنوب
واحدة بواحدة :

أهل المناصب في الدنيا ورفعتهم
أهل الفضائل محقورون بينهم
قد أنزلونا لأننا غير جنسهم
منازل الوحش في الإهمال عندهم
فليتنا لو قسدرنا أن نعرفهم
مقدارهم عندنا أولو درورهم
لهم مريحان من جهل وفرط غنى
وعند المتعبان العلم والعسدم
الدعاوى الكاذبة :

أهوى الخمول لى أظل مرفها
مما يعانيه بنوا الأزمان
إن الرياح إذا عصفت لواقحا
تولى الاذية شاخ الأغصان
وألصقوا به العيوب :

المراء يحظى ثم يعلو ذكره
سقى يزين بالذى لم يفعل
وترى الفقير إذا تكامل عيبه
يرى وييخل بالذى لم يعمل

— ٣٠ —

وللحظ دوره :

والناس في طلب المعاش وإنما
بالجد يرزق منهم من يرزق
لو يرزقون على وزن عقولهم
ألغيت أكثر من ترى يتصدق

الخنول ليس بعيب :

ليس الخنول بعيب
على امرئ ذي جلال
فليقل القدر تخفسي
وتلك خير الاليالى

ولا يرضى بالذل :

حياتي حافظ لي ماء وجهي
ورفقي في مطالبتي رفيقي
ولو أن سمحت يذل وجهي
لكنت إلى الغنى سهل طريقتي

التسامي :

ما تطعمت لئدة العيش حتى
صرت للبيت والكتاب جليسا

- ٣١ -

أى شىء أعز عندى من العلم فما
ابتغى سواه أنيسا
إنما الذل فى مخلطة الناس فدعهم
وعش رئيساً عزيزاً

التسامى :

شغلنا بالعلم عن مكسب الغنى
كما شغلوا عن مكسب العلم بالوفر
وصار لهم خطر من الجهل الغنى
وصار لنا خطر من العلم والفقر

وجهة نظر المفلوك :

وقائله ما بال مثلك خاملاً
أأنت ضعيف الرأى أم أنت عاجز
فقلت لها ذنبى إلى القوم أننى
لما لم يحوزوه من المجد حائز
وما فاتنى شىء سوى الحظ وحده
وأما المعالى فهى عندى غرائز

دعوى التوكل :

وإذا أمرؤ أفنى الليالى حيرة
وأمانيسا أمنيتهن توكل

- ٣٢ -

إخفاء المحاسن :

ولئن خفيت عن الورى وفضائلى
كمد الحسود ونار غيظ الكادح
فالنار فى أشجارها مخبوءة
حتى ينام لها يمينى القادح

مذاهب الناس في الفقر

قد عرفت الإنسانية الفقير والفقراء منذ أزمنة ضاربة في أغوار التاريخ وحاولت الأديان والفلسفات منذ القدم أن تحل مشكلة الفقر والفقراء ، وتخفف من عناء الفقراء حينما عن طريق الوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب ، وتارة عن طريق التحليق النخري في عالم مثالي لاتفاضل ولا طبقات ، ولا فقر ولا حرمان وهو عالم يرسم على صفحات الكتب لا من واقع الناس ، وأبرز مثل لذلك جمهورية أفلاطون ، قبل بضعة قرون من ميلاد المسيح عليه السلام وطوراً عن طريق حركات متطرفة تريد معالجة لانحراف أشد منه ، كحركة « مزدك » في فارس بعد خمسة قرون من الميلاد وقد دعا إلى شيوعية الأموال والنساء . وفي عصرنا هذا استلقت مشكلة الفقر - والمشكلة الاقتصادية على وجه مكانا فسيحاً في عقول الناس وقلوبهم ، واتخذها المخربون الهدامون أداة لإثارة الجماهير ، والتأثير عليها ، وكسبها إلى جانب مذاهبهم اللادينية الباطلة ، بإيهامهم أنها في صف الضعفاء وفي خدمة الفقراء ، وساعد على ذلك جهل المسلمين بنظام الإسلام ، وتأثيرهم بالدعايات المضللة التي منسخت صورته وشوشت جماله ، مستغلة في ذلك الواقع الكئيب لحياة المسلمين . والأفهام الخاطئة لبعض علمائهم في عهود الانحطاط ..

أولا — نظرة التقديس له :

وهؤلاء طائفة من المتزهدين دعاة التقشف والصوفية زعموا أن الفقر ليس شراً يطلب الخلاص منه وليس مشكلة يبحث عن حلها فأهلاً بالفقر حينما حل بل هو نعمة من الله يسوقها لمن يحبه من عباده ليظل قلبه معلقاً بالآخرة راغباً عن الدنيا موصولاً بالله صافياً ذهنه من أوضار المال والمادة رحيماً بالناس بخلاف الغنى الذى يلهى ويطغى و

والفقر مقدس لأنه تعذيب للجسد الفانى لترقية الروح وشاع هذا عند بعض متصوفة المسلمين متأثرين بالثقافات الفارسية والهندية والرهانية المسيحية المبعدة وغيرها من النحل الدخيلة على حياة المسلمين ولهذا رفع هؤلاء الشعار قائمين (إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنب عجلت عقوبته) . .

وهؤلاء من العجب، أن يطلب من هؤلاء تقديم علاج للفقر وما نشأ عنه من خلل في البنية الانسانية . .

موقف الاسلام من هؤلاء :

يسكر الاسلام على هذه الطائفة نظرتها الى الفقر خاصة على أنه هو السلوك الذى ينبغى أن يسير عليه الانسان فليس فى مدح الفقر آية واحدة من كتاب الله ولا حديث واحد صحيح والأحاديث الواردة فى الزهد ومدحه والدنيا وذمها لا تنى مدح الفقر فإن الزهد بقتضى ملك شيء ثم يزهد فيه الانسان فالزاهد حقاً من ملك الدنيا وجعلها فى يده ولم يجعلها فى قلبه والاسلام جعل الغنى نعمه ومنة امتن الله بها على عباده وطالب بشكرها وجعل الفقر اختياراً ومصيبة تحل بالانسان يستعاذ بالله عنها ووضع الاسلام لذلك الحل ..

ثانياً — موقف الجبريين : القضاء والقدر :

وهذه الطائفة تخالف سابقتها في النظرة إلى الفقر وترى فيه شراً وبلاءً ولكنها ترى أنه قضاء وقدر لا يجدى معه الطب ولا الدواء ولا العلاج فقفر الفقير وغنى الغنى بمشيئة الله تعالى وقدره ولو شاء الله ل جعل الناس كلهم أغنياء ولكنه شاء أن يرفع بعضهم فوق بعض درجات ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر لئلا يلوهم فيما آتاهم لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه إلى غير ذلك من الكلام الحق الذى يراد به الباطل . .

والعلاج الذى يقدمه هؤلاء للفقراء هو وصيتهم لهم بأن يصدوا على الاستيلاء ويقنعوا بالعطاء فالتقاع كمن لا يفنى وثروة لا تنفذ والقناعة تعنى الرضا بالواقع على أى حال كان . .

النظرة الجبرية :

وهؤلاء زعموا أن الفقر والغنى أمر محتوم وقدر محسوم لا راد له ولا حيلة فى دفعه وأن غنى الغنى بمشيئة الله وفقر الفقير بمشيئة الله قالوا فلا يرض كل واحد بوضعه . .

فحين احتجاجوا بالمشيئة والقدر رماهم الله بالضلال المبين يقول تعالى : « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعمن من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين » (١) . .

وأى ضلال أبين من أن يقيد هؤلاء بمشيئة الله بأهوائهم فإذا شاء الله أن يطعم عاجزاً أو محتاجاً فى نظرهم أنزل له من السماء سخبلاً وأداما أو

سمنا وعسلا؟ وهذا قادر فعلا على ذلك ولكنهم لو عقلوا وأنصفوا
لعلموا أن الله يرزق الناس من بعضهم من بعض وأن القادر حين يقوم
بكفاية العاجز إنما يكفيه بمشيئة الله ..

فأمرض بقدر الله والعلاج بقدر الله والمؤمن الصادق يدفع قدراً بقدر
كما يدفع الجوع بالذئاء والعطش بالشرب ..

فإذا كان الفصداء فإن الله تعالى جعل له دواء .. أما القناعة التي
فسروها هي الرضا بالدون من العيش والحياة الطون والذلة والمهانة والعودة
عن السعي إلى الغنى الحلال فالرسول عليه السلام كان يسأل الغنى والتقى^(١)
ودعا لصاحبه أنس بقوله (اللهم أكثر ماله)^(٢) وأثنى على صاحبه أبي بكر
الصديق بقوله (ما نفعتي مال مثل ما نفعتي مال أبي بكر)^(٣) ..

ولكن القناعة تنفي أمرين :

أحدهما : أن الإنسان بطبيعته يحب المال ويحرص على الدنيا فأمر
بالاعتدال في ذلك والسعي للغنى لا بالشرة وعليه أن يعمل في طلب
الرزق^(٤) ..

ثانيهما : أن يوقن السلم بأن الله فاضل بين الناس في الرزق كما فاضل
بينهم في المواهب « يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر »^(٥) فلا بد أن يكون
المسلم واقعيًا يحترف بحياته كما هي لئلا يعيش في هم ونصب جريا وراء وهم
كاذب ..

(١) أخرجه مسلم .

(٢) أخرجه البخاري .

(٣) أحمد في المسند .

(٤) ص ٢٠ من السكائب .

(٥) سورة الإسراء الآية رقم ١٧ .

ثالثاً : طائفة الرأسماليين :

الفقر مشكلة وشر والمسؤول عنه الفقير ، أو الحظ أو القدر ، أو أى سبب لكن ليس المجتمع وليس الدولة وليس الأغنياء فكل فرد مسؤول عن نفسه حر فى تصرفه حر فى ماله . . وزعيم دول قارون « قال إنما أوتيته على علم عندى »^(١) فهم يرون أن ما جمعه من مال بذكائهم وبجدتهم فإن تصدق على الفقير فبفضله وشعارهم « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه »^(٢) . .

وهذه النظرة المادية سادت أوروبا فأصبح الفقير كما يقول : الدكتور القرضاوى « فى هذا المجتمع أصبح من الأيتام على مأدبة اللئام » لاحق لهم يطالبون به ولا سند لهم يعتمدون عليه . . . فهم أنانية مفرطة لا تنظر إلى صغير أو فقير أو ضعيف أو زمن حتى ديس الفقير تحت الأقدام وعملت المرأة تحت وطأة الفقر وكذلك الأحداث ونسب السكحول والعجائز فى حظائر يأكلهم النسيان حسب ما يحلو له وثار الفقير تحت هذه الظروف وطالب بحقه . .

والاسلام يرد على الرأسمالية :

فالرأسماليون يرون أن المالك الحقيقى للمال هو الفرد نفسه فهو صاحب الحق الأول والأخير يتصدق منه إن شاء ويبخل إن شاء ويسرف إن شاء ولكن الإسلام يرى أن المال مال الله هو خالقه وواهبه وأن الغنى مستخلف فيه وأمين عليه فالسلم نائب عن المالك الأصلى فى رعايته وتنميته وتحريمه وفقاً لأوامره ومرضاته « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم »^(٣)

(١) سورة القصص الآية ٧٨ .

(٢) سورة يس الآية ٤٧ .

(٣) سورة النور الآية ٣٣ .

« وانفقوا مما رزقناكم »^(١) فالاسلام يلزم المسلم الغنى بأحد أركان الاسلام — الزكاة — أن ينفق على الفقير فإن حجب الزكاة قوتل واعتبر مرتدًا عن الاسلام بالاضافة إلى ترغيبه في البذل ووعد به بأن الله يخلقه « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين »^(٢) . .

رابعاً : موقف الاشتراكية :

فرح الفقير بالاشتراكية حين رفعت دعوى نصرة الفقير شعار النصر له من ظلمه فصودرت أموال الأغنياء وحرموا من ثرواتهم وألغت الطبقات بعضها على بعض وتأججت نيران الحقد الدفينة وحاربوا إمبرياداً الملكية الفردية وحرموا على الناس الملك الفردي « ثروات الإنتاج لـكنهم لم يقدموا للفقير شيئاً بل أخذوا امبراطوريو الأحزاب الحاكمة فحرم الأغنياء من غناهم وساوا الفقراء في فقرهم . .

والاسلام يرد على الاشتراكية :

فهؤلاء الذين لا يرون علاجاً للفقير إلا في تحطيم طبقة الأغنياء ومصادرة ممتلكاته ويحرمون مبدأ الملكية الفردية ويوغرون صدور الناس فإن الاسلام ينكر نظرهم من أساسها « لأن هناك أغنياء شكروا على إعطائهم المال وأدوا حقه كاملاً حق الله وحق الناس ولا يجوز أن تعاقب طبقة بأسرها بذنب أفراد منها » ولا تزر وازرة وزر أخرى «^(٣) كل امرئ بما كسب رهين »^(٤) . .

(١) سورة المنافقون الآية ١٠ .

(٢) سورة سبأ الآية ٢٩ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٦٤ .

(٤) سورة الطور الآية ٣١ .

ثم أن إفى إقرار الملكية الفردية إشباعاً لدافع فطرى أصيل ألا وهو غريزة حب التملك نظراً لما يترتب عليها من آثار ولكن يضع حدوداً وقيوداً للملكية الفردية ويجعلها أساساً لنظام الاقتصاد . .

فإذا استغل الناس أو بهضهم ملكياتهم وجاروا فيها لا يعنى فساد مبدأ التملك فالفساد فى أنفس الناس فإن صلحوا فالمال خير . . نعم المال الصالح للرجل الصالح^(١) . وإن فسدوا فالوزر عليهم لأعلى التشريع . .

ثم إن الإسلام لا يقبل علاج مشكلة ما إذا حصلت بإيجاد مشكلة أخرى أسوأ منها وهذا ما يحصل بالنسبة للاشتراكية فقد عاجت مشكلة الرأسمالية بمشكلاتها هي فهو أسوأ آثاراً وأكثر فساداً فى الأرض . . ونجحوا فى تصميم الفقر واحتجان المال لهم . .

ما هو الفقر ؟

قال الراغب فى المفردات (الفقر يستعمل على أربعة وجوه) :

الأول : وجود الحاجة الضرورية وذلك عام للإنسان بما دام فى دار الدنيا بل عام للوجودات كلها وعلى هذا قوله تعالى « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله »^(٢) وإلى هذا الفقر آثار بقوله « وما جعلناهم جسداً لئلا يكون الطعام »^(٣) أى لهم محتاجون إلى الطعام . .

الثانى : عدم المقتنيات : للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله — إلى قوله أن يكونوا فقراء يخزيهم الله من فضله »^(٤) وعليه آية الصدقات . .

(١) مسند الإمام أحمد - ١٩٧/٤ .

(٢) سورة فاطر الآية ١٥ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٨ .

(٤) سورة النور الآية ٣٢ .

الثالث : فقر النفس : وهو الشره المعنى بقوله عليه السلام (كاد الفقر أن يكون كفرا) والمعنى بقولهم : من عدم القناعة لم يفده المال غنى . .

الرابع : الفقر إلى الله : والآيات الأخرى والأحاديث الدالة على حاجة الناس إلى الله تبارك وتعالى كثيرة وعنى بقوله « أنى لما أنزلت إلى من خير فقير » (١) . .

والفقر نسبي :

فمشكلة الفقر لا زمت الانسانية عبر التاريخ إلا أن الإنسان لا يشعر بوطأة الفقر إلا تدريجيا بزيادة حاجاته تبعاً لدرجة تطوره وتقدمه فالإنسان الأول رغم قلة موارده لم يكن يشعر بوطأة الفقر نظراً لقلة حاجاته وتطلعاته وطموحاته . .

فمسألة الفقر إذن نسبية تختلف باختلاف الزمان والمكان ولا شك أن فقر العصر الحاضر يعتبر غنياً بالنسبة إلى إنسان العصر القديم كما أن متوسط الحال في مصر والهند يعتبر فقيراً بالنسبة لمتوسطى الحال في أمريكا وأوروبا (٢) . .

وفي هذا يعكس الفقر التفاوت في الدخول والتفاوت في سد ذاته يعترف به الاسلام لأنه سنة كونية « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم » (٣) . .

(١) سورة القصص الآية ٣٤ .

(٢) الموسوعة / لجمال ص ٣٥ .

(٣) سورة النحل آية ٧١ .

ويقول تعالى « أهرم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون » (١) . . وقال تعالى « وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضهم فوق بعض درجات بفرض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » (٢) والهدف من التفاوت والله أعلم هو التسخير والابتلاء والتسخير هنا تسخير عمل ونظام لا تسخير قهر وعبودية فالإسلام لا يعترف إلا بالتعاون على أن الجميع يحتاج بعضهم إلى بعض (٣) . .

(١) سورة الزخرف آية ٣٢ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٦٥ .

(٣) د. عبد الهادي النجار - الإسلام والاقتصاد - صدر سلسلة عالم المعرفة بالكويت - عام ١٩٨٥ م - ١٤٠٣ هـ .

الفصل الأول

البعد العقدي لمشكلة الفقر

مقدمة

عمل الدلجى على استجلاء ما قد يكون وراء الفقر من عوامل عقائدية تولد عنها أنتجته ، ثم قام بتحليل مارآه من هذه العوامل مبينا كيف أنها لا يصح أن تنتج هذه المشكلة .

وذلك من خلال حديثه عن :

١ — مسألة القضاء والقدر : وأنه لا يحتاج به على وجود الفقر .

٢ — مسألة التوكل : وأنه لا يحتاج به على وجود الفقر .

٣ — ومسألة الزهد والورع : وأنه لا يحتاج به على وجود الفقر .

وقبل أن ندخل في تحليل ومناقشة آراء الدلجى تجاه تلك المسائل الثلاث ، نرى - من وجهة نظرنا - أن مجرد تعرضه لهذا البعد العقائدى فى مشكلة الفقر أمر يستحق التنويه خاصة إذا علمنا أن الكثير من الفقراء قد يعملون أو قد يعتنرون عن فقرهم بعامل أو بآخر من تلك العوامل .. كما أن تأثير الإعتبارات النفسية فى سلوك الإنسان أمر واضح غير مجهول . .

لكنه مع ذلك يبقى هنا تساؤلات موجهة للشيخ الدلجى لم يجب عنها فى كتابه الذى نقوم بتحليله فمها مثلا :

أن الدلجى يلوم الفقر وحده :

حيث أن حديثه انصرف إلى الفقراء وكأنهم وحدهم هم الذين أوجدوا لأنفسهم هذه المشكلة ، بيد أن حقيقة الأمر وواقعها أن الفقراء ظاهرة

لإجتماعية تنشأ في المجتمع وتتضافر على نشأتها عناصر عدة قد لا يكون أهمها ما يرجع إلى الفقراء أنفسهم وهو ما أبرزه الدلجى إبرازاً واضحاً يبدو وكأنه لا سبب للفقير غير الفقراء أنفسهم ، بل إن ذلك يرجع أيضاً إلى النظام القائم والعلاقات السائدة ونوعية الفئات الفنية القادرة المتظلمة فيما بينها والتي نسيت حق الفقير . .

فكم كان هاما ومطلوباً أن يدلى الدلجى بدلوه في هذا الاتجاه مبرزاً مسؤولية غير الفقر والفقراء ، ومبرزاً أيضاً مسؤولية الأنظمة السائدة عن تفشي هذه الظاهرة . .

نعم لقد بين بوضوح مدى سوء هذه المشكلة ولكن كان عليه أن يبين أن مثل هذه المشكلة تلك الحالة المتدنية لا يرغب فيها أحد ، وحيث أصيب بها فرد فهمي في حقيقة الأمر شبه مفروضة عليه فرضاً . .

فلو أن الدلجى وسع نظره تجاه هذه الناحية لتقديم لنا القدر الطيب من المعرفة المتعلقة بالنظم والعلاقات الإجتماعية ، وكذلك بالسياسات المتنوعة لعلاج هذه المشكلة ولكنه لم يفعل وهذا من مآخذنا عليه . .

ليس الدلجى وحده :

ولقد فعل هذا التنوية من جاء بعده بقرون عدة في الغرب وهو القس « مالتس »^(١) الذي حمل الفقراء وحملهم مسؤولية فقرهم مبرئاً المجتمع والنظام القائم من تبعه الإسهام في وجودها وهذا مما يثير لدينا تساؤلاً عما إذا كان « مالتس » اطاع على كتاب الدلجى أم أنه مجرد توارد خواطر وهو الذي يترجح لنا .

(١) ولد توماس مالتس سنة ١٧٦٦ اشتهر بآرائه المتشابهة في السكان وقام برحلات في أوروبا كاملة وألقى سلسلة من المحاضرات وأشهر مؤلفاته مقالة عن السكان دام ١٧٩٨ وبحث في تطور الريع توفي سنة ١٨٣٤ م.

فهذا قصور في المعالجة :

ولا شك أن التحليل العلى الدقيق لهذه المشكلة يبرز أن مثل تلك المواقف والمعالجات لا تزال قاصرة وبحاجة إلى مزيد من التعميق والبحث المتواصل . .

ثم أن المنهج الإسلامى المتمثل فى القرآن الكريم والسنة النبوية قد تناول هذه المشكلة تناولاً شاملاً مبرزاً دور العناصر المختلفة فيها مؤكداً على مسؤولية الأنظمة السائدة والفتات القادرة مالياً فى إحداث المشكلة وتعميقها مع عدم إغفال مسؤولية الفقير نفسه . .

فقد تناول القرآن والسنة بالتفصيل مسألة الملكية والتوزيع للدخول والثروات ، ومسألة الحقوق والواجبات ، ومسألة التكامل والتعاون والائتمان ويكفى كنموذج لذلك فرضية الزكاة واعتبارها ركناً من أركان الإسلام فهى حق المال وهى حق الفقير والمساكين ولا شك أن كل ذلك يمثل الأرضية الصلبة للمجتمع إن لم تنمح منه ظاهرة الفقر كلية فإنها على الأقل تحف وتنكمش لتصبح مجرد حالات فردية وعارضة خفيفة التأثير والدرجات هذا إذا تحقق التطبيق الإقتصادى الإسلامى بكامله فإن الفقر ومشكلته ينزويان ويكادان لا يظهرا على السطح إلا فى القليل الأفل وسرعان ما تحل — بضم التاء — مشكلة الفقر عند ظهورها نتيجة التكافل والتعاون الذى أمر به الإسلام . .

أولاً : عذر الفقير

القضاء والقدر والرد عليه

حسنا من الدلجى أن يطرح هذا الموضوع ليمين بجلاء ووضوح رفض هذه النظرية سواء قال بها الفقراء أنفسهم أو قال بها الأغنياء الجاحدون نعمة الله عليهم الذين قالوا : « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » (١) . .

أقول : تحدث الدلجى عن هذه المسألة ليقطع عذر الفقراء وتعاليمهم بأن ما هم عليه من فقر أمر خارج عن نطاق قدراتهم ومسؤولياتهم إذ أنه من فعل القضاء والقدر فهو أمر مقضى به ومقدر عليهم من قبل الله تعالى ولا راد لقضائه ولا حيلة لدفعه ، فبين الدلجى بأسلوب على رصين أن ذلك خطأ وأن القضاء والقدر لا يحتاج بهما في مثل تلك الحالة على أنهما معوقات للفقير . .

فلا يحتاج بالقضاء والقدر غير مقبول من الفقراء لأنه مطلوب منهم العمل والإجتهاد فعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : (كنا في جنازة في بقيع الفرق فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعده وقعدنا حوله ومعه خضرة فمسكس فجعل يمسكس بمخصرته ثم قال ما منكم من أحد من نفس منهوسة إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة قال فقال رجل يا رسول الله أفلا نمسكس على كتابنا وندع العمل فقال من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ثم قرأ « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » (٢) وفي لفظ للبخارى

(١) سورة يس آية ٤٧ .

(٢) سورة الليل الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .

« إعمالاً فكل ميسر لما خلق له فسبق المقادير بالشقاوة والسعادة لا يقتضي ترك الأعمال بل يقتضي الاجتهاد والحرص فإن العبد ينال ما قدر له بالتسبب الذي أقدر عليه ويمكن منه وهيبه له فإذا أنى بالسبب أوصله إلى القدر والذي سبق له في أم الكتاب وكلما زاد اجتهاداً في تحصيل السبب كان حصول المقدور أدنى إليه وهذا كما إذا قدر له أن يكون أعلم أهل زمانه فإنه لا ينال ذلك إلا بالاجتهاد والحرص على التعلم وأسبابه وإذا قدر له أن يرزق الولد لم ينل ذلك إلا بالنكاح أو التسرى والوطء وإذا قدر له أن يستغل من أرضه من المخل كذا وكذا لم ينله إلا بالبذر وفعل أسباب الزرع وإذا قدر الشبع والرى فذلك . موقوف على الأسباب المحصلية لذلك أكل الشرب واللبس وهذا شأن أمور المعاش والمعاد فمن عطل العمل إتكالاً على القدر السابق فهو بمنزلة من عطل الأكل والشرب والحركة في المعاش وسائر أسبابه إتكالاً على ما قدر له . .

وقد فطر الله سبحانه عباده على الحرص على الأسباب التي بها مرام معاشهم ومصالحهم الدنيوية بل فطر الله على ذلك سائر الحيوانات فهكذا الأسباب التي بها مصالحهم الآخروية في معادهم فإنه سبحانه رب الدنيا والآخرة ما هو الحكيم بالقيمة من الأسباب في المعاش والمعاد وقد يسر كلا من خلقه لما خلقه له في الدنيا والآخرة فهو مهياً له ميسر له . .

وقارن باحتجاج آدم وموسى فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إحتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خبيبنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده أنلومنى على أمر قدره الله على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة فقال النبي صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى فحج آدم موسى فحج آدم موسى .

(٤ — الفكر الإقتصادي)

وعن جابر بن عبد الله قال جاء سراقه بن مالك بن جعشم فقال يا رسول الله بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن فم العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل قال : لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير قال ففهم العمل ؟ فقال اعملوا فكل ميسر) . . . رواه مسلم . . .

وعمران بن حصين قال قيل يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار فقال نعم فقال ففهم يعمل العاملون فقال كل ميسر ما خلق له) . . . متفق عليه (١) .

(١) قال ابن قيم الجوزية تعليقا على هذه الأحاديث والآثار في كتابه شفاء العليل . . . ص ٤٤ « فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرهما على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتسكال عليه بل يوجب الجهد والاجتهاد فإن النبي صلى الله عليه وسلم أعلمهم بالقدر السابق وجربانه هل الخليفة بالأسباب .

ابن القيم الجوزية - شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والعقليل ، ص ٤٤ وما بعدها - والأحاديث المذكورة متفق عليها .
انظر المستدرك للحاكم ٤٦١/٢ .

ثانياً : عذر الفقير التوكل على الله والرد عليه

وعذر آخر قال به الفقراء أنه محض التوكل على الله فهم لا يتملكون ولا يرغبون في العمل - وذلك في مجموعهم - لأن هذا يناقض التوكل على الله القائل « ومن يتوكل على الله فهو حسبه »^(١) والقائل « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين »^(٢) وآيات التوكل المثبوتة في القرآن الكريم . .

ولا شك أن التوكل عميدة المسلم ولا يصح إسلام المرء ولا إيمانه إلا إذا رسخت لديه صفة التوكل وآيات القرآن تترى مبينة لذلك التوكل وتؤكد عليه وكذلك الأحاديث الصحيحة هذه نقطة أولى يجب إبرازها والوعى الكامل بها فلا إسلام ولا إيمان بدون توكل .

ليكن السؤال الذي نطرحه الآن : هو ما أثر هذه العقيدة على السلوك الإلزامي للمسلم بوجه خاص وسلوكه العملي بوجه عام ؟ هذا هو محط القول وهو نفسه ما توجه إليه الدلجى وآثاره بوضوح . .

فهذه القديم ومنها بداية ظهور الإسلام فهم التوكل من قبل بعض المسلمين على أنه يكفي بمفرده مع عدم تناول الأسباب وترك العمل ، ثم تطور هذا المفهوم إلى أن وصل إلى اعتقاد أن العمل والأخذ بالأسباب منافي للتوكل ، وقد ترتب على ذلك وقوع من اعتقد هذا الاعتقاد في حرج ومأزق فإنه بين أمرين لا ثالث لهما فإما أن يترك والأخذ بالأسباب مع احتفاظه بتوكله على الله وفي ذلك حرج عليه ومشقة وشدة وسوء الآثار على المستوى الفردي والمستوى الجماعي ، ولما أن يترك التوكل ويأخذ بالأسباب وفي ذلك ما فيه على مستوى العقيدة التي فهمها ومخالفتها لها ،

(١) سورة الطلاق آية ٣ .

(٢) سورة المائدة آية ٢٣ .

والملاحظ أن من أوقع نفسه في هذا المأزق الفكري قد فضل ترك الأخذ
بالأسباب محتفظاً بما فهمه فهما -ناتجاً عن التوكل بما ولد طائفة تظهر في كل
عصر تترك العمل الدينى والنشاط الإقتصادى متذرعة بأنها متوكلة على
الله وبأن ذلك النشاط يناهز التوكل وبالتالي ينهز العلماء للرد عليهم ولا يصح
الحقيقة نثار أسوء الآثار الاجتماعية والإقتصادية المترتبة على تفشى هذه
الظاهرة بالإضافة إلى ما فيها من شغل فكري ودينى . .

ولقد ساهم الدلجى كغيره من العلماء في تجلية هذه الحقيقة واستمر المد
الفكري النير بعده حتى هذا العصر الذى ساهم أيضاً مفكروه بالكتابة
حول هذا الموضوع لما يوجد من موجات صوفية متطرفة هى خطر على
الاجتمع بالإضافة إلى انتشار البطالة التى اختاروها لأنفسهم بحجة التوكل
على الله وقدعوا أمام مريديهم لاشئ سوى البطالة التى تخل بنشاط المجتمع
الإسلامى وتصادم نصوص القرآن والسنة الجاثمة على العمل والكسب
لأنه من الأخذ بأسباب القوة المسادية حتى يستمر عز الإسلام
والمسلمين . .

مفهوم التوكل على الله :

وقبل أن نكتب رأى الدلجى حول هذه المسألة وهو رأى متفق مع
غيره من علماء السلف والخلف فى أن التوكل على الله وترك الأسباب لإنجاء
يخالف الشريعة ولا عذر للفقير بهذا . . نخرج بعجالة سريعة على الكتاب
والسنة وما قاله العلماء حول ذلك ونختتم البحث بنقولاً من كتاب الدلجى
نفسه الذى نقوم بدراسة ، ونتلو ذلك بسطور عن ابن قيم الجوزية . .

أولاً : التوكل في القرآن الكريم :

القارىء للقرآن الكريم يجد هذه الكلمة ومشتقاتها وردت كثيراً ومن دراسة السياق الذى وردت فيه يلاحظ الباحث أنها لم ترد على الإطلاق يقصد ترك الأسباب وعدم بذل الجهد والنشاط بل على العكس من ذلك وردت في معرض الحث على الأعمال وخاصة الأعمال الشاقة المضنية مثل الحروب وغيرها في سورة آل عمران يقول الله : . . « فإذا عزمت فتوكل على الله » (١) فالـتوكل على الله مرحلة لاحقة تسبقها مرحلة العزم والمجال مجال حرب وقتال وتحريض فهو أعنف الأعمال . . ويقول الله تعالى « خذوا حذركم » (٢) ويقول مخاطباً مريم عليها السلام « وهزي إليك يخذع النخلة تساقط عليك رطاباً جنياً » (٣) فلو لم تهز النخلة لم يتساقط عليها الرطب مع أن الله قادر على ذلك ولكن لابد من فعل الأسباب . ويقول تعالى « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » (٤) وهو خطاب عام للمسلمين ويذكر العلماء أن سبب نزول هذه الآية هو أن أناساً من أهل اليمن حجوا ولم يأخذوا معهم زاداً بحجة التوكل على الله وذهبوا يسألون الناس ويستجدونهم فنزلت الآية في الرد عليهم ولكن مع ذلك فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فهو عام للمسلمين في الأمر بالتزود وأخذ الزاد في كل رحلة حتى لا يحتاج المسلم إلى غيره وهو أخذ بالأسباب الحيلة والحذر .

والآيات في الأمر بالأخذ بالأسباب كثيرة جداً ولا تنافي التوكل على الله .

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

(٢) سورة النساء آية ٧١ .

(٣) سورة مريم آية ٢٥ .

(٤) سورة البقرة آية ١٩٧ .

ثانياً : التوكل على الله والأستعانة بالأسباب في السنة :

(أ) صحح الرسول عليه السلام سلوك أحد الأفراد عندما وجده قد انحرف والانس عليه الأمر حيال هذه المسألة حيث نرك بعيره بغير عقال متدبراً ومحتجاً بأنه متوكل على الله فقال له عليه السلام « اعقله وتوكل »^(١).

(ب) ولقد كان عليه السلام هو المعلم للناس جميعاً فهو المتوكل على الله حق توكله ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب لأن الله تعالى جعل لكل شيء سبباً فقد لبس المغفر حالة الحرب حين دخوله مكة عام الفتح . . وكان عليه السلام إذا أراد سفراً للغزو ورى بسفر آخر أو بجهة غير الجهة التي يريد، بل إنه قال أنى لأرى الشاب يعجبني فأسأل هل له حرفة فإذا قيل لا سقط من عيني^(٢) . وهو القائل عليه السلام : « ما أكل أحد طعاماً قط خيره من أن يأكل من عمل يده وأن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده »^(٣) .

واعتبر عليه السلام أن الساعى لرزقه وإعفاف نفسه وعلى عياله له أجر المجاهد في سبيل الله واقرأ هذه القصة (مر على النبي صلى الله عليه وسلم رجل فرأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من جلده ونشاطه فقالوا يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله فقال عليه السلام « إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله وإن كان خرج على أبوين شيخين

(١) ابن حبان - الموارد - ص ٦٣٣ .

(٢) التراتيب الإدارية - للسكتاني - ص ٢/٢٢ .

(٣) انظر : المصريح السنة للإمام البغوي - رقم الحديث ٢٠٣٦ ج ١/٨ - المكتب

الإسلامي بيروت - (٢٠٥ ت) ، صحيح البخاري ٢٥٩/٤ البيوع - باب يكسب الرجل وعمله بيده . . .

كبيرين فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى عل نفسه يعفها فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان (١).

وكان عليه السلام إذا وجد إنسانا يسأل الصدقة وهو قادر على العمل يهيه له أسباب العمل ويحذره من أن يسأل وهو يستطيع الكسب حفاظا على ماء وجهه وحرمت المسألة على الغنى والقوى المكتسب إلا فى ظروف خاصة ومستثناة . .

وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله شيئا من المال فقال له عليه السلام أما فى بيتك شيء ؟ قال بلى حلس « كساء غليظ » فأيس بعضه ونهبط بعضه ، وقعب « وعاء » نشرب فيه الماء فقال الرسول صلى الله عليه وسلم اتتنى بهما فأتاه بهما فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال من يشتري هذين ؟ قال رجل أنا آخذهما بدرهم قال صلى الله عليه وسلم : من يزيد على الدرهم ؟ مرتين أو ثلاثا قال رجل أنا آخذهما بدرهمين فأعطاهما الأنصارى وقال له اشتر بأحدهما طعاما فأنبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدوما فأتتنى به فأتاه به فشد رسول الله صلى الله عليه وسلم عوداً بيده ثم قال اذهب فاحتطب ولا أرينك خمسة عشر يوما ففعل فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فاشتري ببعضها ثوبا وبعضها طعاما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا خير من أن تجيء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة إن المسألة لا تصلح إلا لذى ثلاث الذى فقر مدفع أو لذى غرم مفطع أو لذى دم موجع (٢) . ويقول عليه السلام « من أمسى كالا من عمل يده

(١) مسند الإمام أحمد ٢/ ٣٠٠ .

(٢) تقدم تخرجه .

أمر مغفوراً له يوم القيامة»^(١) ويقول عليه السلام «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»^(٢).

وقد أراد أحد الصحابة الخل والاعتكاف لذكر الله فقال عليه السلام لا تفعل فإن مقام أحسنكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته ستين عاماً»^(٣).

ويقول عليه السلام : الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار»^(٤).

والسنة مليئة وثرثرة بالشواهد القولية والفعلية والإقرار منه عليه السلام لصحابه في طلب الكسب والحث عليه وعدم التقعود عنه وكان كثيراً ما يحثهم على الصدقة ويرغبهم فيها ولا صدقة إلا من الفائض (وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى)^(٥) وكان يفرح بصدقات صحابه ومساهماتهم في سبيل الله وكان هذا منع عليه السلام إقراره للأخذ بالأسباب مع التوكل على الله حق توكله ففعل السبب لا ينافي التوكل على الله . .

(٢) الطبراني في الأوسط وأخرج الإمام محمد بن الحسن الشيباني قوله (ص) « أنه من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الله في طلبه المعيشة » ص ٦٢ من كتاب الكسب .

(٣) تقدم نظريته .

(٤) الم. تدرك للحاكم ١٦٨/٢ .

(٥) سنن ابن ماجه - رقم الحديث ٢١٤٠ .

(٦) المسند للإمام أحمد ٢/٢٧٨ ، البخاري ومسلم ، وراجع في ذلك أيضاً تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج لابن الملقن رقم ١٠٠١ ، ابن حبان ٦/٢٢ .

ثالثاً: « في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب » :

برزت هذه الفئة المدعية للتوكل وأنكر عليهم عمر ما هم عليه وأجلاهم عن جلوسهم ومقاعدهم قائلاً لهم : « قوموا فاطلبوا الرزق فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة »^(١) ، وفي مناسبة أخرى يقول (إني لأرى الشباب يمجبن فأسأل هل له حرفة فإن قيل لا سقيط من عيني)^(٢) ، وفي مناسبة ثالثة يقول (التوكل على الله أن تبذر البذرة في الأرض ثم تتوكل)^(٣) . وكان ينخص القاعدين بدون عمل ويسمون أنفسهم بالتوكلين قال ما هم بالتوكلين بل هم المتساكلون^(٤) ، وقال في مناسبة أخرى (إنما خلقت الأيدي لتعمل)^(٥) وهكذا وجه عمر ابن الخطاب رضى الله عنه هؤلاء الزاعمين التوكل على غير حقيقته وظنوا أن العمل اليدوى والكسب الإقتصادى ينافيه ولكنهم في حقيقة الأمر حبههم للبطالة والخمول والانتكال على الغير لا على الله سبحانه وإلا فكيف فهم اليمينيون « الحجاج » أنهم يحجون متوكلين ثم يتكلمون على الناس في الإنفاق عليهم ولو صدقوا في توكلهم لما سألوا أحداً غير الله تعالى واليد العليا خير من اليد السفلى ولا يد عليا إذا كانوا يمدون أيديهم لسؤال الناس من غير ما بأس أو حاجة إلا الحاجة التى افتعلوها وابتدعوها لأنفسهم بحجة التوكل على الله .

(١) التراتيب الإدارية - عهد الحى السكتانى ٢/٢٢ .

(٢) التراتيب الإدارية - السكتانى ٢/٢٢ .

(٣) المرجع السابق : ٢/٢٣ .

(٤) المرجع السابق : ٢/٢٢ .

(٥) الأستاذ محمد الغزالي عن كتابه ظلام من الغرب مع مصاحره ص ١٣٩ .

رابعاً: بعد عصر الرسول ﷺ والخلافة الراشدة:

وفي عهد محمد بن الحسن الشيباني والإمام أحمد بن حنبل في القرن الثاني والثالث الهجري استمرت الفكرة (ألف الإمام الشيباني كتاباً في الرد عليهم سباه الكسب)^(١) ، وسباههم الإمام أحمد رحمه الله « المتوكلون » وألف كتابين في الرد عليهم يبين فيهما المراد بالزهد والمراد بالورع فسمى الأول كتاب الزهد وسمى الثاني كتاب الورع ، ثم ألف تليذه أبو بكر الخلال وهو جامع عليه كتاباً صغير الحجم كثير الفائدة سباه « الحث على التجارة والصناعة والعمل » ونقل نقولات جيدة رد فيها على هؤلاء الخاملين بل سماهم الإمام محمد بن الحسن جهلة المتقشفة وسباهم جهلة المتصوفة « ورد عليهم رداً بليغاً مستشهداً بالأنبياء عليهم السلام وكلهم كانوا يعملون ودم أفضل المتوكلين على الإطلاق وأعلمهم بالله ثم بدأ بالصالحين من أمة محمد عليه السلام ..

« وفي القرن الخامس » كتب الغزالي كتابه « إحياء علوم الدين » رداً بليغاً على القاعدين عن الكسب^(٢) . .

وفي « القرن السادس وأول السابع » كتب الوصايفي الشافعي كتابه « البركة في السعي والحركة » . وفي « القرن الثامن وآخر السابع » كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وبوضوح في الفتاوى معنى الزهد ورد على القائلين بالفكرة . .

(١) طبع بتحقيق د. سهيل زكار (ه . ت .) .

(٢) ج ٢ ص ٦١ نه .

خامسا : ماذا قدم الدلجى تجاه هذه المسألة ٥ :

خصص الدلجى الفصل الثالث من كتابه لمعالجة « قضيتى التوكل والزهد وعلاقتيهما بالفقر » وقد تخير لهذا العنوان التالى (الفصل الثالث فى أن التوكل لا ينافى التعلق بالأسباب وأن الزهد لا ينافى ككون المال فى اليدين) (١) . .

وقد بدأ الدلجى بحثه بتعريف التوكل لغة واصطلاحا فقال :

أما التوكل فى اللغة فهو فى الأصل عبارة عن إظهار العجز والاعتماد على الغير ثم جرى تخصيص لغوى بما يكون الإعتماد فيه على الله . .

وأما فى الاصطلاح : فهو « دوام حسن ملاحظة القضاء والقدر فى جميع الحوادث دون اقتصار النظر على الأسباب الطبيعية » (٢) . .

ثم بين أن التوكل بمفهومه الصحيح بهجامع التعلق بالأسباب ولا ينافيها . .
ثم أخذ الدلجى يناقش مجالات حركة الإنسان فى الحياة سواء كانت حركت جسمية أو فكرية فيبين أنها لأمر ثلاثة :

١ - إما جلب نفع .

٢ - أو المحافظة على النفع .

٣ - أو لدفع ضرر .

(١) ص ٨ من كتاب الفلاحة والمفلوكون . .

(٢) ص ٩ من الكتاب . .

ثم بين بعد ذلك «لبيبة العلاقة بين الأسباب والمسببات» علاقة المسببية والمسببية «فقد تكون العلاقة قطعية... وقد تكون العلاقة ظنية... وقد تكون العلاقة وهمية وضرب الأمثلة الجديدة على كل نوع منها وقد يستشهد... من كتابه حول هذه العلاقة استفادة الدلجى من ما كتبه الغزالي فى هذا الموضوع فى كتابه الإحياء...»

ثم بين أن ما كان قبطانيا أو ظنيا فإن حركة الإنسان حياله لا تنافى التوكل بل لقد وصل الدلجى إل أكثر من هذا فقال إن ترك الحركة هنا فيه مراغمة لحكمة الله تعالى فى نصب الأسباب وفيه جهل بسنة، الله وقد وصم من يفعل ذلك بالجنون والجهل بالشرعية، كما أنه ارتكب محرمات عدة منها تعريض نفسه للهلاك وكذلك تعريض من يعوله أيضاً...»

ويستعين الدلجى فى بحثه هذا بالنصوص من القرآن والسنة حيث ينقل آيات منها قوله تعالى «خذوا حذركم»^(١)، وقوله تعالى «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة»^(٢)، وقوله تعالى «فأسر بعبادى ليلا»^(٣)، ثم نقل اختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش بالغار...»

أما كانت علاقته «وهمية» فقد قال «إن الحركة والأسباب التى تربط بمسبباتها بعلاقة الوهم مثل الرقية والكي» فإن تلك الحركة منافية للتوكل من حيث أن ذلك ناتج عن الحرص على الدنيا وجهها»^(٤). ثم خلاص إلى أنهما ينافیان جوهر التوكل وحقيقته بأنه عدم الاعتماد على

(١) سورة الفساء : الآية ٧١ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٦٠ .

(٣) سورة الدخان : الآية ٢٣ .

(٤) انظر ص ٨ من الكتاب .

الأسباب بل الاعتماد على خالق الأسباب وعدم الاعتماد على شيء وعسكسهم ممارستها والقيام بها شيء آخر . . . ثم انتهى الدلجى إلى نتيجة جوهرية فى موضوعنا حيث يقول « أنه ليس من شرط التوكل ترك الأسباب وإطراحها وإهمال الكسب للبدن والتدبير للقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة أو كالحلم على الوضغ فإن ذلك كله حرام فى الشرع ولن يتقرب إلى الله تعالى بمحارمه » (١) . .

ولنا أن نناقش الدلجى فى ما يتعلق « بالوهمية » :

ليس لأننا لانقره عليها بل نحن معه فى هذا ولكن المثال الذى اختاره لم يكن موفقا فيه فحين اختار « الرقية والكي » كثال لذلك فلعله ذهابا منه إلى حديث المؤمنون الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب حين وصفهم عليه السلام « بأنهم لا يسترقون ولا يكتون وعلى ربهم يتوكلون » (٢) ، فإن كان كان هذا ما ذهب إليه فلسنا معه لفهمه وأخذه بنص الحديث ذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أقر الرقية بالقرآن وهو شفاء وقصة حديث الرقية لا يخفى على الدلجى (٣) بل وأجاز أخذ الجعل عليه وقال « إن أحق ما أخذتم عليه أجر آكتاب الله » (٤) . . ولا شك أن الرقية جزء من مما يستفيد منه المسلم من القرآن حيث أنه شفاء « وينزل من القرآن ما هو شفاء » (٥) فهو شفاء للقلوب وهو شفاء للأبدان . .

(١) انظر ص ٨ من الكتاب .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٣٥٣/٦ وهو حديث متفق عليه .

(٣) البخارى ١٩٩/١٠ .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٤٣/٩ ؛ وهو حديث متفق عليه .

(٥) سورة الإسماء : الآية ٨٢ .

أما إذا كان يقصد الرقية بغير كتاب الله وبغير الأدعية الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من التلاوين والعزائم^(١)، التي لاصلة بها بالشرع فنحن معه في هذا وعلينا نحسن الظن بالدلجى فهو أهل لذلك وتتفق معه ، وكذلك الشأن بالنسبة للـكى وقد أقر عليه السلام الـكى ويعلم أن صحابته يستعملون الطب الشعبي ومنه « كيه من نار » ونحن نجزم بأن ما جاء في القرآن من أسباب للطب وغيره وأوطأ القرآن والعسل وغيرهما أنهما من صميم الحقائق القطعية لا الظنية ولا الوهمية . .

ولكن ماذا عن المحافظة على النفع :

لقد مثل الدلجى بالإدخار وأفرد له حديثاً لأهميته وحسناً فعل الدلجى فإن الإدخار له أثره المعروف فى الإقتصاد وفى عمليات التقدم والتخلف .. وهنا يفرع الدلجى تفريعات كثيرة معطيا لكل تفريع حكمه متأثراً فى ذلك بالإمام الغزالي فى كتابه الإحياء . .

فمثلاً يقول « أما أن يكون الادخار مع فراغ القلب عن الشيء المدخر أولاً يسكون فإن كان مع فراغ القلب فلا ينافى الادخار المتوكل أما إن لم يكن مع فراغ القلب فإن كان الإنسان ينزع قلبه بترك الادخار وتضطرب نفسه وتتشوش عليه عباداته ويتطلع إلى ما فى يـد الناس فإن الادخار له أولى »^(٢) . . وقد بين مستند هذا القول بأن « المقصود إصلاح القلوب لتتجرد لذكر الله ورب شخص يشغل عن وجود المال ورب شخص يشغله

(١) جمع عزيمة . .

(٢) انظر ص ٩ من كتاب الفلاكة والمفلوكون .

عده والمحدور هو الشغل عندما كان أو وجودا ،^(١) وهذا موقف طيب من الدجى تؤيده فيه وتقدره له .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخر : ثم بين الدجى أن
الرسول عليه السلام كان يدخر فقد ادخر لعياله قوت سنة^(٢) ، وبين الحكمة في نهى الرسول عليه السلام لأم أيمن ولبلال عن الادخار من أن الادخار يضر ببعض الأشخاص دون بعض ويؤيد ذلك مما نضيفه على الدجى عدم قبول الرسول عليه السلام من أحد الصحابة ماله كله صدقة بل ورماه عليه غاضبا قائلا : (يأتى أحدكم بماله كله فيتصدق به ثم يقعد لاصقا بالأرض) فهذا الأمر منه عليه السلام بالادخار لمثل هذا الشخص — فإن قيل — بأنه عليه السلام قيل من أبى بسكر ماله كله حين تصدق به ففكيف رفض من مثل هذا الصحابي ماله كله قلنا أن المسألة تعود لقوة الإيمان والتوكل على الله فإيمان أبى بكر رضى الله عنه وتوكله أعق بكثير من إيمان هذا الصحابي الذى قد لا يستطيع أن يصل مرتبة أبى بكر والله ورسوله أعلم وهذا هو السر في تفاوت المتوكلين على الله حق توكله .

وننقل الحديث كاملا لما فيه من تعليم من الرسول عليه الصلاة والسلام لصحابته وللمسلمين وللمعرفة أن ليس كل إنسان يستطيع أن يتوكل توكل غيره فالتوكل نسبي فتوكل أبى بكر رضى الله عنه غير توكل هذا الصحابي ولا لقبيل منه عليه السلام ماله كله فحيث اختلف الناس في منزلة التوكل على الله أمرهم عليه السلام أن لا يفرطوا في ما لهم ولا في أكثره (الثالث والثالث

(١) انظر ص ١٠ من الكتاب .

(٢) تاريخ بغداد ٤٤٣/٩ .

كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس^(١) وهذا هو نص الحديث : (عن جابر رضى الله عنه قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاء رجل فقال يا رسول الله أصبت هذه من معدن فخذها فهي صدقة ما أملك غيرها فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم فأتاه من ركته الأيمن فأعرض عنه ثم أتاه من قبل ركته الأيسر فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه من خلفه فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذفه فلو أصابته لأوجعته أو لعقرته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أي أحدكم بما يملك فيقول (هذه صدقة ثم يقعد يستكفف الناس خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى)^(٢) . .

(١) تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج : لابن المقفى ٢/٣٥٤ ، أخرجه الحاكم على شرط مسلم ٤١٣/١ ووافقه الذهبي .
(٢) أخرجه أبو داود ١٢٨/٣ باب الزكاة ، وابن حبان ٨٣٩ موارد الظلم ..

تقييم لبحث الدلجى حول التوكل

هذا عن معالجة الدلجى للتوكل وهى معالجة فى نظارنا جيدة وموفقة إذ تكشف عن الموقف الإسلامى السلفى بحيال هذه المسألة فلم يختلف نهج الدلجى عن ما فهمه السلف بحيال هذه المسألة ومنها يتضح أن التوكل بمفهومه الإسلامى لا ينافى الأخذ بالأسباب ولا يصح أن يكون متكماً للفقير والفقير والتخلف ، وننتهى إلى نتيجة أخرى أنه من يفتقر ويتذرع بأنه متوكل على الله فهو باطل وهو عاص لله حيث ارتكب العديد من المحرمات . .

ولنا على الدلجى ملاحظة :

وهو أنه ركز جهده فى بحثه هذا على إبعاد السلبيات عن التوكل ودحض كل ما قد يفهم منه أنه يحض على ترك العمل ومن ثم يتهى إلى الفقر والتخلف . ولكن الدلجى لم يبرز الدور الإيجابى للتوكل ، فالمعالجة الشاملة للتوكل لا تقتصر على إبعاد الدور السلبى له بل وتمتد لإظهار الجانب الإيجابى حيث أن التوكل ليس عنصراً محايداً لا يضر ولا ينفع أنه لا يضر نعم وهذا ما أوضحه الدلجى بجملة كما أنه ينفع وهذا ما لم يظهره الدلجى ولم يكشف عنه فالواقع أن التوكل — كما ذهب أحد المعاصرين^(١) — طاقة كبرى فى يد الإنسان تدفعه دفعا إلى ممارسة الحركة والأخذ بالأسباب لما أنها تعصمه من اليباس والتقنوط عند عدم تحقق النتائج وعدم إنتاج الأسباب لسبباتها وكذلك تعصمه من الغرور والصلف عند تحقق النتائج وهذا ما يميز

(١) هو الدكتور شوقى أحمد دنيا فى كتابه الإسلام والتنمية الاقتصادية ص ٣١٠ —
طبعة دار الفكر العربى — طبعة أولى — ١٩٧٩ م القاهرة . .

(٥ — الفكر الاقتصادى)

المؤمن عن غيره فالمؤمن بتوكله على الله يقف من النتائج موخفاً من فاطبيعيها
فلا يأس ولا هلع ولا غرور ولا تكبر وبعكس غير المؤمن فإن لسان حال
قوله تعالى « قل كل من عند الله » (١) . . أما لسان حال غير المؤمن فيقول
كما قال قارون « إنما أوتيته على علم عندي » (٢) . .

« وهكذا فإن التوكل تجنيد للقوى والطاقات الروحية بجواز ما تحت اليد
من أسباب مادية سعياً وراء تحقيق النتائج فهو طاقة موجبة ومدعمة حين
ممارسة الحركة وقبل ممارستها وبعد الانتهاء منها » (٣) . .

وماذا قال ابن قيم الجوزية :

ونحتم بحث التوكل بسطور نقلناها ملخصة عن ابن قيم الجوزية والذي
استفاد منه الدلجى كثيراً في كتابه هذا قال : (والفرق بين التوكل والعجز
أن التوكل عمل القلب وعبوديته لإعتدأ على الله وثقة به والتجاء إليه
وتفويض إليه ورضاء بما يقضيه له لعله بكفايته سبحانه وحسن إختياره
لعبده إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها
فقد كان رسول صلى الله عليه وسلم أعظم المتوكلين وكان يلبس لامته
ودرعه بل ظاهر يوم أحد بين درعين واختفى في الغار ثلاثاً فكان متوكلاً
في السبب لا على السبب . وأما العجز فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما فإما
أن يعطل السبب عجزاً منه ويزعم أن ذلك توكل ، ولعمرك الله إنه لعجز
وتفريط ، وإما أن يقوم بالسبب ناظراً إليه معتمداً عليه غافلاً عن السبب
معرضاً عنه ، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخطر ولم يعلق قلبه به تعالفاً

(١) سورة النساء : آية ٧٨ .

(٢) سورة القصص : آية ٧٨ .

(٣) نفسه د. شوقي دنيا ص ٣١٢ .

تأما بحيث يكون قلبه مع الله و بدينه مع السبب فهذا توكله عجز وعجزه توكل وهذا موضوع إنقسم فيه الناس طرفين ووسطا « فأحد الطرفين » عطل الأسباب محافظة على التوكل « والثاني » عطل التوكل محافظة على السبب « والوسط » علم أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب فتوكل على الله في نفس السبب وأما عن عطل السبب وزعم أنه . وكل فهو مغرور بخدوع متمن كمن عطل النكاح والتسرى وتوكل في حصول الولد ، وعطل الحرث والبذر وتوكل في حصول الزرع ، وعطل الأكل والشرب وتوكل في حصول الشبع والرى ، فالتوكل نظير الرجاء ، والعجز نظير التقي لحقيقة التوكل أن يتخذ العبد ربه وكيلا له قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله العالم بكفايته ونهضته ونصحته وأمانته وخبرته وحسن إختياره ، والرب سبحانه قد أمر عبده بالاحتياط وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه فأمره أن يحرث ويبذر ويطلب رزقه خمان ذلك كما قدره سبحانه ودبره واقتضته حكمته وأمره أن لا يعلق قلبه بخيره بل يجعل رجائه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه وأخبره أنه سبحانه الملى بالوكالة الوفى بالكفالة ، فالعاجز من رعى هذا كله وراء ظهره وقعد كسلان طالبا للراحة مؤشرا للدعة يقول : الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله وسيأتيني ما قدر لي على ضعفى ولن أنال ما لم يقدر لي مع قولى ولو أنى هربت من رزقى كما أهرب من الموت للحقنى فيقال له : نعم هذا كله حق وقد علمت أن الرزق مقدر فما يدريك كيف قدر لك ، بسعيك أم بسعى غيرك ، وإذا كان بسعيك فبأى سبب ومن أى وجه ، وإذا خفى عليك هذا كله فمن أين علمت أنه يتقدر لك إتيانه عفوا بلا سعى وبلا كد فكمن من شىء سعيت فيه فقدر لغيرك وكمن من شىء سعى فيه غيرك فقدر لك رزقا ، فإذا رأيت هذا عيانا فكيف علمت أن رزقك كله بسعى غيرك ؟ وأيضا فهذا الذى أوردته عليك النفس يجب عليك طرده فى جميع الأسباب مع مسبباتها حتى فى أسباب دخول الجنة والنجاة من النار ،

فهل تعطّلها اعتماداً على التوكل أم تقوم بها مع التوكل ، بل إن تخلو الأرض من متوكل صبر نفسه لله وملاً قلبه إلى الله واطمأن إليه ووثق به وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه فلم يعطل السبب وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه فكان توكله أوثق الأسباب عنده فكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه تضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب بمنعه من ذلك أو من كماله فلم يتسع قلبه للأميرين فأعرض أحدهما إلى الآخر ، ولا ريب أن هذا أكمل حالا من امتلاً قلبه بالسبب واشتغل به عن ربه وأكمل منهما من جمع الأمرين وهي حال الرسل والصحابة فقد كان زكريا نجاراً وقد أمر الله نوحاً أن يصنع السفينة ، ولم يكن في الصحابة من يعطل السبب اعتماداً على التوكل بل كانوا أقوم الناس بالأمرين ، ألا ترى أنهم بذلوا جهدهم في محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل وعمرؤا أمرهم وأصلحوها وأعدوا لأهلهم كفايتهم من القوات اقتداء بصييد المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه (١) . .

(١) كتاب الروح - لابن قيم الجوزية - ص ٣٤٤ وما بعدها - دار الفكر للنشر - الأردن - عمان سنة ١٩٨٥ م . .

ثالثاً : عذر الفقير الزهد

الزهد في اللغة : الشيء القليل والزاهد في الشيء الراغب عنه والراضي عنه بالقليل والزاهد القليل قال تعالى « وكانوا فيه من الزاهدين » (١) .

الزهد في الاصطلاح : الإعراض عن الشيء لاستقلاله واحتقاره وارتفاع الهمة عنه . هذا ما عرفه به الإمام بن رجب (٢) . .

وماذا قال الزهاد : مستندهم حديث (الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا بإضاعه المال ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون فيما يدرك أوثق مما في يد الله . . . وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبحت بها أرغب فيها لو أنها بقيت لك) (٣) . .

وفي الحديث الآخر : (ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس) (٤) .

والخطأ قصر مفهوم الزهد على المال والمتاع الدنيوى متابعة للمستشرقين . . . والذي نلاحظه خطأ تصور المستشرقين للزهد الإسلامى بسبب معاصرهم لمقاييس الحضارة المادية . حيث خلعت فيها شهوات البحث عن المتع والشهوات أصبحت معايير التقدم فيها قائمة على أرقام الإنتاج

(١) المفردات للراغب الاصفهاني في مادة « زهد » ص ٢١٥ ، سورة يوسف الآية

٣٠ .

(٢) جامع العلوم والحكم شرح الأربعين النووية لابن رجب ص ٣١٠ .

(٣) انظر : الفتح الكبير للسيوطى - ص ١٤٦/٢ .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان - انظر : الفتح الكبير

للحال الدين للسيوطى ج ١/١٧٦ .

وقواهم الميزانيات والتصاعد المذهل في الإقبال على السلع الاستهلاكية وكل هذه المظاهر تخالف بدون شك الحضارة الإسلامية الأولى بمقاييسها ففهاهم المستشرقين تنطبع في أذهانهم صور الرهبانية في الدير منقطعين عن الانشغال بالأمور المادية والمشاركة فيها (١) . .

الزهد عند الدجلى :

عرفه المؤلف بقوله : وجود المال في اليدين لا في القلب . . ويقول : فدخل الدنيا على العبد وهو خارج عنها لا يتأني الزهد وإنما أعلى المقامات أن يستوى عند القلب وجود المال فإن وجدته لم يفرح ولم يتأذى وكذلك إن فقدته (٢) . .

فهذا هو الزهد الذى تحدث عنه المؤلف وقاله إن الفقراء يتعلمون بالزهد ولم يصدفهم في اتجاههم هذا بل إنهم استغلوا هذا الاتجاه عذراً لهم في فلاكتهم وفقرهم حتى لا يلاموا حين يطلب منهم العمل والنشاط والسكد والتعب وحين تتلى عليهم نصوص الشريعة في وجوب الكسب وأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يكسبون بأيديهم ولم يكونوا عالة على غيرهم ومع ذلك فهم من أزهد الناس بالمعنى الذى قدمه المؤلف وقد يسمى هذا الزهد (الفقر التعبدي) إن صحت التسمية لعموم الأحاديث الواردة في مدح الزهد الحقيقي (يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بشواب فقركم وإلا فلا) (٣) . .

(١) ومن تابع المستشرقين في تصوراتهم من المحدثين د. عبد الرحمن بدوى في كتابه شخصيات قلقة - فارن بكتاب الأستاذ د. مصطفى حلمي « الزهاد الأوائل » ص ١١ منه وقارن أيضاً بصفحة ١٧ منه .

(٢) انظر ص ٨٠ من الكتاب .

(٣) بعد البحث الشديد لم أعر على هذا الحديث .

— ٧١ —

ونختتم بحث الدلجى للزهد بتوضيح أكثر حيث يقول : الزهد فى الاصطلاح « ترك المباح المحبوب المقدر عليه لأجل الله . .

فالقيد الأول : ترك المباح متارك المحظورات والممنوعات لا يسمى زاهداً . .

والقيد الثانى : أن يكون مالا يؤبه له ، فما لا مؤبه له كالتراب والحجر حين يتركهما لا يسمى زاهداً . .

والقيد الثالث : كونه توجه إلى الله فبإذل المال وتاركه على سبيل السخاء واستمالة القلوب والطمع فى الثناء لا يسمى زاهداً بل هو استعجال حظ آخر للنفس . .

القيد الرابع : المقذور عليه فما لم يكن مقدوراً عليه وتركه الإنسان فلا يسمى زاهداً كالزهد فى الملك .

الفصل الثاني

الآثار السلبية للفلاحة « الفقر »

خصص الدلجى فصلاً كاملاً لبيان الآفات التى تنشأ من الفلاكة ونعرض هنا أولاً : معالجة الدلجى لتلك الآفات ، ثم بعد ذلك نعلق عليها من وجهة النظر التى نراها أصح وأقوم . .

حملة ضارية واتهامات للفقراء :

لقد حمل الدلجى على المفلوك « الفقير » حملة شعواء واصفاً له بصفات دميمة فيها الكثير فى المبالغة علماً بأن أغلب الصفات التى وصفها به قد يشاركه غيره من الآخرين الذين ليسوا بمفلوكين وقبل أن ندلى برأينا حيال هذا الموقف من الدلجى نستعرض أولاً هذه الصفات :

أولاً : المفلوك ضيق العطن نزق :

بمعنى أنه غير سوى الشخصية بل يثور ويغضب لاتفه الأسباب بحكم ما هو عليه خفة وطيش ومرجع ذلك ما هو عليه من ضيق اليد^(١) .

المناقشة :

ولسنا مع الدلجى فى ما ذهب إليه من وصفه للفقير بهذه الصفات إلا فى القليل من الناس لعلنا بأن من الفقراء من لا يشعر بفقدهم أبداً ومن الفقراء من رضى وحلم للرازق ذى القوة المتين ولما عليه بعض الفقراء من أخلاق فاضلة هذبها الإسلام ولما نحكم من بعض المصايين ببعض هذه الصفات على الكل وماذا يحجب الدلجى عن قوله بأن أكثر من أصيب بالفلاكة هم العلماء فهل هم أيضاً يحملون ذات الصفات « ضيق العطن والشرق » وهل صحيح أن الفقير ساء العشر منحرف منزو عن الخلق . .

(١) ص ١٤ من كتاب الفلاكة والمفلوكون . .

فقد أن خلق الله الخلق وفي الناس فقير وغنى وبعض الفقراء يحمل
نفسا كريمة وكرما في الانفاق ولا يخشى من ذى العرش إقلا . . وإن
سلطنا جدلا بأن هذه الصفات قد يتصف بها بعض الفقراء فإن ذلك قد
يسكون لإحساسهم بالظلم الإجتماعى لهم ولكن هناك جوانب أخرى
لا يصدق عليها التحليل فليس كل الفقراء يضيئون بفقرتهم لدرجة ضيق
العطن والنزق نعم يحملون صفات أخرى سلبية ولكن لا نرى مع الدلجى
تعميم هذه الصفات على الفقراء . .

ثانيا : المفلوك مقهور ومسكره (١) :

وأعتقد أن هذه ليست صفة بقدر ما هى سلوك مفروض عليه ويقول
الدلجى أنه بقره وإكراهه يسلك سلوكا خاصا له سلبياته فتجده يكذب
فيه خبث وخديعة وفساد الطوية فالفلانة كة قهر وإكراه ونشأت عنها تلك
الصفات الرذيلة . . وهل هذا صحيح وخاص بالفقراء وخدمهم أم أن ثمة من
الأغنياء قد يحملون ذات الصفات والدلجى نفسه وصف التجارة وأمور
الأنشطة الاقتصادية بعامة أنها لا تتناسب مع العلماء لما تحتاج إليه من مسكر
وخديعة وما شابه ذلك فما بال الفقراء وخدمهم فى الميدان ؟ ونحن لا نبرىء
الفقراء والمفلوكين ولكن ينبغى أن نكون صادقين فى تحليلنا . .

ثالثا : المفلوك حاقق :

وذلك ناتج عن نظرة المجتمع المتدنية له وعدم قدرته على الانتصار
لنفسه ومن ثم عدم قدرته على تعديل هذه النظرة فيتحول إلى حقد ظاهر
ودفين . .

ماذا قدم الإسلام علاجاً لهذه النظرة :

في الواقع أن الإسلام نهى عن ذم الفقراء والاساءة إليهم بل وأمر بإصلاح حالهم دفعاً للحقد الذي يتطور إلى سلبيات لعل أهمها أنه يتحول الفقير إلى مجرم يعيب في البلد فساداً ويرتكب الجرائم الكثيرة كالسرقة وقطع الطريق بغية الانتقام من هذا الموقف السلبي فالإحسان إلى الفقراء والعطف عليهم والحدب المستمر والنظرة ذات الصدق هو المبدأ الإسلامي وهو مبدأ إنساني بدون شك . . . وجعل جزءاً من المال الذي يملكه القادرون حقاً مفروضاً للفقير ذلك هو « الزكاة » بالإضافة إلى سنة من شريعات أخرى تكفل للفقير أن يمتص منه الحقد وأن يشعر بالمساواة مع أخيه القادر وأن لا يشعر بالهوة البعيدة بينة وبين الآخرين بل وأمر بالانفاق التطوعي حتى تتقارب الفئات لكي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم» (١) . .

ولم تكن نظرة الإسلام للفقير تقتصر على النظرة المادية بل إنه راعاه في جميع حقوقه « لمن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٢) فقد ساوى بينه وبين الغنى في كل شيء بل لقد عاتب الله رسوله عليه السلام عندما هم بترك الفقراء والتوجه إلى الأغنياء مع أن الهدف كان الترغيب في الإسلام ليس إلا وهو هدف نبيل وهو الذي من أجله بعث عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك عوتب في همه ذلك بل وانصرافه إلى الأغنياء « عبس وتولى ان جاءه الأعمى » (٣) وكان يردد عليه السلام كثيراً عندما يراه « (٤) مرحباً بمن

(١) سورة الحنص : آية ٧ .

(٢) سورة الحجرات : آية ١٣ .

(٣) سورة هـ : الآيات ١ ، ٢ .

(٤) انظر زاد المسير لابن الجوزي - تفسير سورة عبس : ٢٦/٩ .

عائني فيه ربي » ويقول الله تعالى « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي . . الآيات »^(١) ولذلك مزيد من التفصيل عن ذكر صفة أخرى . .

رابعاً : المفلوك حاسد :

الحسد خلق نفسى ذميمة وضیعة وساقطة ليس فيها حرص على الخير فلهجزها ومهايتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها وتتمنى أن لو فاته كسبها حتى يساويها في العدم كما قال تعالى « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله »^(٢) وقال تعالى « ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونوا سواء »^(٣) فالحسد عدو النعمة متمن زوالها كما زالت عنه هو والمنافس سابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من يتنافس فهو يتنافس غيره دون أن يعلم عليه ويجب لحاقه به أو مجاوزته له في الفضل .

وقد يطلق الحسد على المنافسة والفتنة المحمودة كما في الحديث الصحيح (لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على ما أسكته في الحق ورجل آتاه الله علماً فهو يعلمه آتاه الليل وأطراف النهار)^(٤) متفق عليه . .

قال الدلجى : الحسد من وجوه :

أولها : إذا توالى مقتضيات الغيظ الناتج عن تأجيج الناس له « المجتمع » وعجز المفلوك عن الانتقام تحول ذلك حقداً وضغينة . .

(١) سورة الأنعام : آية ٥٣ .

(٢) سورة النساء : آية ٥٤ .

(٣) سورة آل عمران : آية ١١٨ .

(٤) ابن قيم الجوزية - كتاب الروح - ج ٣ / ٣٤١ - دار الفكر - عمان - صفة

ثانيها : أنه يعز على المفلوك أن يترفع عليه غيره فإذا أصاب مساو له في صفات النفس مالا أو جاها وخاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق أن يتكبر عليه ولا نسمح نفسه باحتمال صلفه وتيهه وتفخيره عليه وأن يستصغره ويستخدمه وعجز عن زوال الفلاكة عنه واللحوق به في تلك النعمة أحب زوالها عن غيره .

ثالثها : ما يحدث في نفوس المفلوكين « الفقراء » من دعوى استحقاق ما عند الناس من النعم وغضبهم لها (١) . . .

ويقول د . محمد عبد المنعم جمال حول مرييات الدلجى لهذه النظرة لدى الفقراء « إن الحرب المقدسة والتي أعلنها الدلجى ليست معلنة على الفقر فحسب بل هي لمحاربة أولئك الذين يحرمون الفقراء من حقوقهم الثروات استناداً إلى عموم قول الله « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » (٢) .

فالفقير يعجز عن أن يكون مؤمناً حقاً أو متصفاً بالفضيلة أو الإنسانية كما أن الأمة الفقيرة لا تجد نصيراً وتكون عالة على المجتمع البشرى بأكمله بل ويرى الدلجى أن حالة الفقير أشبه ما تكون بحالة المشرك مما يشير إليه الحديث (كاد الفقر أن يكون كفراً) (٣) . .

وبتطبيق الدلجى لأصول الإسلام على المستوى الاجتماعى أثبت أن الأغنياء في مجتمع فقير ليسوا سوى مغتصبين — أو هكذا يراهم الفقير —

(١) ص ١٦ من الكتاب .

(٢) سورة الحج : آية ٣٩ .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ج ٣/٥ ، ١٠٩ ، ج ٨/٢٥٢ . وانظر موسوعة

الاقتصاد الإسلامى للأستاذ محمد عبد المنعم الجمال ص ٤٥ . .

ويقول الدلجى فى ذلك « قن حق المحروم أن يرى النعم التى بأيدى الناس مغصوبة ومن حق المالك أن يعمل على استرداد ماله من أيدى المغتصبين » ومن ثم كان رأيه أن الفقراء مسؤولون على وجه التحديد ظالمون لأنفسهم و... (١)

خامسا : المفلوك غياب طعان يقع فى أعراض الناس :

وهذه عبارته : (ومنها الغيبة والطعن فى أعراض الناس والغضب منهم وذلك أن الغضب والحقد والحسد ثلاثها من البواعث العظيمة على الغيبة ، فإذا امتلأ المفلوك غضبا وحقدا وحسدا وعجز عن الجرى على مقتضاها جهارا ومواجهة لتجأ إلى الغوص على مساوىء خصومه وأعمال الخيلة فى الاطلاع على عوراتهم وضم إليها أكاذيب وتنميقا ونشرها على وجه الغيبة مرة لإرادة الترفع بنفسه بسلامته من تلك النقائص ومرة لإتصافه بنقائضها السكالية على سبيل التعريض ومرة ثالثة لإرادة صرف الناس عن الاسترسال فى تعظيم خصومه وكفهم عن الإفراط فى الثناء عليهم ومحتهم بتوقيفهم على ما يوجب تنقيضهم وصرف القبول عنهم ، ومرة رابعة بتمهيد عذر نفسه من اتصافه بالمساوىء والتناقض بمشاركة العظماء له فى تلك المساوىء — لست وحدى — ومرة خامسة على سبيل التلذذ بالطعن فى الأعراض تشفيا بحب المعدور ثم يتعود لسانه هذه المعصية العظيمة حتى يصير له خلقا وفكاهة ونقلا ويساعده على ذلك إمكانها وتسهيلا وعدم اقتصارها إلى أدوات وآلات وكونها عبارة عن نقطة باللسان) (٢) ..

(١) موسوعة الاقتصاد الإسلامى - د. محمد عبد المنعم الجبال - ص ٤٥ - دار الكتاب المصرى ، دار المكتبات اللبنانى ، القاهرة سنة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

(٢) هذه عبارات الدلجى بتصرف قليل ص ١٦ ، ١٧ منه ..

والسؤال :

هل الفقير يتصف فعلا بهذه الصفات ؟

أن من يرى الواقع الذى نعيشه اليوم فإنه يرى أنه ملئ بهذه الصفات — مع الأسف — ولكن تسكاد وتكون قاسما مشتركا وليس منشؤها الفلاكة والفقير بل إن لها أسبابا عدة وقد ذكر الدلجى من بينها الذم للتلذذ بحسب وكم من الأغنياء نقصت فيه صفة العلماء فتراه يسبب العلماء ويلصق بهم التهم لأن كل إنسان يبحث عن ما يكمله وقد استكمل لهم الغنى فتجدهم يقصون فى أعراض ذوى الخير من الأمراء والعلماء وصالحى الفقراء « العباد » وقل مثل ذلك ممن قلت أخلاقه وسفلت من بعض العلماء الذين لم يصونوا عليهم وهكذا « ونجى لاندافع عن الفقير » بتدريج ما يريد العدل ونشره حسب الاستطاعة فالفقير وإن إتصف بهذه الصفات كل الفقراء بل أن هناك الفقراء الأخيار الذين تنزل الرحمة بسبب دعائهم فتبين أن تخصيص الفقير بهذه المناقب وسحبها عليه أى على مجموعة فيه كثير من التيجنى عليه وخروج عن جادة الحق والصواب . .

سادسا : الفلاكة ستر للمحاسن والكمالات :

فالمفلوك مهما أوتى من حكمه وعلم ومعرفة وفطنة وذكاء وكرم فى الأخلاق إلا أن نظرة المجتمع إليه تغطى على كل تلك الأمور وتبعده وتعريه عن هذه الصفات . . يقول الدلجى (ومنها كون الفلاكة غطاء وسترا للمحاسن المفلوك وكمالاته النفسية وأدواته ومعارفه حتى أن الفلاكة تسرى إلى نطقه ومصنوعاته ومقاصده فيما أن يفعل عن محاسن كلامه عن (٦ - الفسك الاقتصادى)

ظاهره بوجه من التأويل ، وإما أن لا يفهم مراده منه وإما أن يدعى عليه غير مراده وإما أن يدعى فساد قصده وسوء نيته . . . ولكون الفلاكة سترا على المحاسن وعطاء لما تجدد الشهرة والصيت والسمعة يقعن في غير مواقعها غالباً فرب شخص مشهور بالعلم والصلاح وليس بذالك ورب شخص قعدت عنه الشهرة وهو أحق بها . . (١) . .

والناس يقبلون على من زالت منه الفلاكة : ويتزلفون إليه بالثناء عليه ونشر محاسنه وجمل من كلامه ويحملونها أكثر مما تتحمل تزلفاً لما يعلمون من أن النفوس مجهولة على حب الثناء ووقعت المجابة والأغماض عن أحواله المدخولة وأفرغت في قوالب جميلة بالتأويل والأعذار وجاءت المغالطات بالتلبيس والتصنيع فتجىء له الشهرة وليس بذلك . . (٢)

ولنا تعليق سريع :

هذه جمل من كلام الدجى حول هذه النقطة وهي تبين خبرة الرجل في الناس ودراسته لهم وهي وإن كانت لا تحتاج إلى ذات الجهد الفكرى إلا أن الصياغة الأدبية حرلت هذه الفكرة إلى محل نفسى كبير . .

ونشير هنا إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سأل صحابته عن رجلين أحدهما غنى وآخرهما فقير فقال عليه السلام ما تقولون في هذا ؟ عندما مر عليهم الغنى — قالوا هذا حرى به إن قال أن يسمع وإن نكح أن ينكح وقال عندما مر الآخر «الفقير» ما تقولون في هذا ؟ قالوا : حرى به أن قال لا يسمع له وإن نكح لا يجاب إليه ذلك فقال عليه السلام أن هذا خير

(١) ص ١٧ من الكتاب .

(٢) ص ١٨ من الكتاب .

من هل الأرض مثل ذاك ، أو نحو هذا . ، ذلك لأن الشريعة تأخذ بمبدأ «التقوى» فالمفاضلة بالتقوى فحسب أخذنا من قوله تعالى «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (١) فلا الغنى ينفعه غناه إذا لم يتق الله ولا الفقير يضره فقره إذا اتقى الله . .

ومع ذلك فإن هذه النظرة مرفوضة تماماً من الشريعة وقد عالجها الإسلام علاجاً تاماً فهمى عن احتقار المسلم لأخيه المسلم (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره . .) الحديث (٢) . .

ونهى عن النبذ والتعيير بالفقر أو بغيره وأمر بالرفق بالخدم وضعاف البشر وهم عادة صنف مفلوك (إخوانكم حولكم أطعموهم مما تطعمون وألبسوهم مما تلبسون . . الحديث) (٣) . .

وما يهول به الناس من الصافات الأغنياء وادعاءات كاذبة فإنها سرعان ما تتضح ويبين سهرجها . (مأما الزبد فيذهب جفاء) (٤) ولنا بهذا نغى على الأغنياء غناهم . بقدر ما ننحى عليهم أن يحنوا أن يحمداً بما لم يفعلوا وقد ورد في القرآن ذم الذين يجهنون أن يحمداً بما لم يفعلوا . .

ونحن مع الدلجى :

أن هاناً مما يشير حفيظة الفقير — أو المفلوك — كما يسميه ويسبب حقداً أو حسداً وربما رغبة فى الانتقام من هذا المجتمع الذى يخفى المحاسن

(١) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

(٢) المسند ٦٨/٢ وهو حديث متفق عليه .

(٣) المسند ١٦١/٥ وهو حديث متفق عليه .

(٤) سورة الرعد : الآية ١٧ .

إذ كانت صادرة من رجل لا يؤبه له وذنبه أنه مفلوك فحسب «فكل الصيد في جوف الفرا» والذي قسم الأرزاق قسم العقول فكم مرزوق وهو يحمل عقلا صغيرا وكم مضيق عليه وهو يحمل عقلا وافيا وبصيرة نافذة . . ولهذا قال الحكيم :

كم عالم عالم أعيت مذاهبه
وجاهل جاهل نلقاه مرزوقا
هذا الذي صير الأذهان حائرة
وصير العالم النخري زنديقا

ولكننا نستبدل كلمة « زنديقا » بكلمة « صديقا » ذلك لأن هذه قسمه الله تعالى طو الذي قسم العقول والأرزاق « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » (١) . .

والأسوأ من ذلك أن يتجاوز الناس الحد كما قال الدجى فليصلقوا بالمشهور شيئا ليس له نفاقا له ومداهنة ويطبوا البساط عن الشخص الذي يستحق التقدير فيصير مزويا في زاوية يراقب المجتمع الظالم له الذي يغمطه حققة دون ذنب جناه . وهذه عبارته (ولكون الفلاكة غطاء وستر على المحاسن تجد الشهرة والصيت والسمعة) يقعن في غير موقعها غالبا قرب شخص مشهورا بالعلم أو الصلاح وليس هناك ورب شخص قعدت عنه الشهرة وهو أحق بها وذلك لأن الفلاكة متى زالت عن شخص تزلف إليه بالثناء عليه ونشر المحاسن عنه وحمل كلامه وفعله من المحاسن والمقاصد بحميلة فوق طاقته وتناقضاته الألسنة نزلنا إليه ووقعت المحاباة عن أحواله المدخولة وجاءت المغالطات بالتلبيس والتصنيع) (٢) . .

(١) سورة النساء : الآية ٥٤ :

(٢) ص ١٧ ١٨ من الكتاب .

سابعاً : إن الغلام كذا تسبب الآلام العقلية :

يقصد المؤلف بالآلام النفسية ولا شك أن الألم النفسي أشد وقعا على الإنسان من الألم الجسمي لسرعة زوال التعب الجسمي وإبطاء زوال التعب النفسي وكل ذلك بإرادة الله ولما أن المتعب نفسيا لا يستطيع الكسب ولا الإنتاج بخلاف المريض جسدياً ثم يطيل المؤلف بسكلام فلسفي طويل لا يدخل تحت ما نحن فيه من بحث إقتصادي ونرى من وجهة نظرنا أن المفلوك إذا أصيب عقله وذهنه بانشغال فلا يحسب له حساب ويبقى كما مهملاً في المجتمع بطالاً عبثاً عليه . .

ولنعد إلى الدلجى لنرى هذه الآلام بعد رحلته الطويلة حول التحليل الفلسفي الذي لا يدخل نطاق بحثنا يقول عن الآلام :

الألم الأول :

تشوفهم وتشوقهم إلى المسكارم والمعالي ومد أعناقهم إليها^(١) ونحن مع الدلجى في أن هذا يتسبب في الألم النفسي إذا لم يستطيع المفلوك تحقيقه فتراه دائماً في تفكير وسجن حيث لم يدرك مناه ومراده وفي هذه الحالة ينصح الدلجى هؤلاء المفلوكين بأن (لا يشتغلوا بما هو ليس في مقدورهم فإن هذا اشتغال بما يلهمهم عن البحث عن تدبير أمور فلا كتهم)^(٢) وأعتقد أن للتقارير سؤالاً مؤداه أن كل إنسان عليه أن يطمح للعالي وكل معنى جميل فكيف تصد الفقير عن المجادلة فإنه إن لم يفكر في مثل هذه الأمور فسيفيق جلس بينه ولزق أرضه ؟ فالجواب أن الطموح مطلوب لكن الذي

(١) ص ١٨ من الكتاب .

(٢) ص ١٩ من الكتاب .

تتفق مع الدلجى عليه هو أن طموحاتهم تشبه الخيال فمنهم يتمنون ويطمحون شيئاً لا يمكن تحقيقه وحالتهم من الفلاكة لا تخفى أما وهم يستعجبون أن يرتقوا السلم شيئاً فشيئاً فنحن مع القارىء . .

الألم الثانى :

(نألمهم بذكر نقائصهم الواقعة منهم أحياناً بحكم البشرية وأعظم مصيبة عليهم إضافة إلى النقائص الموهومة أو المكذوبة إليهم وهم منها براء)^(١) وقد تحدثت عن هذه الفقرة حديثاً مختصراً عند بستر المحاسن فلا أعيد ما قلته هناك . .

والألم الثالث : ألم الانفراد :

يقول المؤلف (وثالثهما : ألم الانفراد مع أن الإنسان مدنى بطبعه لا يمكنه أن يستقل بنفسه منفرداً عن غيره بحيث لا يستعين بأحد فى حاجاته وضروراته بل لا قوام لا حواله إلا بالتعاون حتى أن الرغيف من الخبز لا يصير رغيفاً إلا بآلات وأعمال تفتقر إلى صناع كثيرين كثيرة بالغة . . . والمفاليك يلزمهم الانفراد لزوماً لا انفكاك لهم عنه)^(٢) . .

ولنا تعليق :

يمكن القول بإيجاز بالغ : أن هذه المقولة تضمنت الكثير من المسائل منها ما هو ذو طبيعة إقتصادية ومنها ما هو ذو طبيعة غير إقتصادية ومنها ما هو غير ذلك . .

(١) ص ١٩ من الكتاب .

(٢) ص ٢٠ من الكتاب .

(أ) فأما عن احتياج الساعة أى سلة في إنتاجها إلى العديد من الآلات والأعمال والكثرة البالغة من الصانع فهذا حق من جهة ويعتبر كشفاً إقتصادياً متقدماً من جهة أخرى يسجل للدلجى حيث أبرز أهمية ضرورة التخصيص ويقسم العمل وتشابك الأعمال والصناعات . .

وهنا تبرز لنا مسألة هامة بل وأساسية في دنيا الاقتصاد فكرياً وتطبيقاً وهي ضرورة الاهتمام بالتعاون بين الأعمال والمهن من جهة وضرورة توفير التخصص من جهة أخرى . .

(ب) أما عن أن الإنسان مدنى بطبعه لا يمكنه الاستغناء بنفسه في اشتباع حاجاته فهى أيضاً مسألة جديرة بالتقدير ولها دلالة إقتصادية ذلك لأن فيها الإشارة إلى أهمية التعاون وكذلك أهمية للتبادل . . ولكن كون الفلاحة — الفقر — تجعل الفرد منفرداً لإنفراد لا فكاً له منه ، وكون ذلك يحقق ألماً عقلياً للمفلوك فنحن معه أن ترتب الألم صحيح إذ حياة أى إنسان وهو في عزلة عن غيره تسبب له الألم النفسى بالإضافة إلى المتاعب الاقتصادية الأمر الذى لا يخفى على الإنسان . .

لكن هل يلزم المفلوك الانعزال والإنفراد فهذا ما يحتاج لمناقشة مع الدلجى . . إن عملية العزلة الكاملة والمطلقة غير واردة حيث لا حياة معهما كما كانت نوعية الحياة ، ولكن يمكن أن نفهم كلامه على أن المفلوكين يكونون فئة هامشية بعيدة عن التأيد والتأثر من الانفصال بالحياة الإقتصادية المحيطة بهم وهذا فيه قدر كبير من الصواب كما هو مشاهد الآن وكما هو متعارف عليه حالياً الآن . .

وإذن يكون للدلجى فضيلة الكشف المبكر أو التعرف الرائد على تلك الظاهر محزراً مما لها من سىء الآثار . .

ثامناً : الفلاحة تؤدي إلى البطالة والعمل غير المنتج :

هذه المسألة هامة تستحق وقفة مع الدلجى لئلا نرى كيف انتهى إلى هذه النتيجة ..

رؤية الدلجى :

يرى الدلجى أن المفاليك - الفقراء - يعجزون عن المعاش الطبيعى فإنهم يلجأون إلى أعمال عقيمة يتكسبون منها ومن الحرف العقيمة وذلك نتيجة لعدم استطاعته الوصول إلى العمل الطبيعى لكسب قوته اليومى هو وأسرته أو سهولة الاكتساب عن طريق الشعوذة واتخاذ الناس البسطاء بمثل هؤلاء ..

ولأن تناول الدلجى لهذا الموضوع يكسبه منزلة عالية في عالم الفكر الإقتصادى وذلك لنواح عديدة منها :

١ - أن مجرد إشارته إلى أن هناك أعمالاً طبيعية في الكسب والنشاط الإنتاجى وأعمالاً غير طبيعية تعتبر إسهاماً كبيراً حيث أنه بذلك قد لفت الأنظار مبكراً إلى ما قد يشيع في العالم الرافى من الكثير من الممارسات والأنشطة التى هي في ظاهرها وهي في الواقع غير ذلك ..

وجاء الفكر الوضعى فيما بعد وتناول بتفصيل هذه المسألة ..

٢ - من أمثلة تلك الأعمال غير الطبيعية في الكسب والتنجم والكيمياء وبالطبع فليس المقصود بالتنجم دراسة الفلك المعهود حالياً فهذه مطلوبا شرعا حيث أن النجوم مسخرة « والشمس والقمر بحسبان والنجم

والشجر يسجدان ،^(١) فعليتنا دراستها والإفادة منها في تيسير حياتنا ، ولكن المقصود ما كان شائعا من قبل من حيث استخدام النجوم في أعمال السحر والشعوذة ومعرفة الطالع والذي عليها الحديث (أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر فمن قال مطرنا نبيوء كذا وكذا فهو كافر ومن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فهو مؤمن »^(٢) ، وكذلك الأثر: « كذب المنجمون ولو صدقوا »^(٣) .

ولا شك أن الاشتغال بمثل تلك الأعمال هو من الناحية الإقتصادية غير منتج وغير مفيد بالإضافة إلى ماله من آثار ونتائج شرعية وخيمة حيث تنقل صاحبها إلى الكفر والإشراك بالله . . وكذلك الحال في الكيمياءات فإنها في السابق عملية تزييف الأشياء وليست من علم الكيمياء المهمود حاليا .

— الدلالة ليست من الأعمال غير الطبيعية :

ولكن إشارة الدلجى إلى « الدلالة » وتصنيفها ضمن الأعمال العقيمة فهذا مأخذ نأخذه عليه لأن الدلالة هي السمسرة بالمعنى المتعارف عليه في المصطلح التجارى أو الكومسيون أو الوساطة وهي مهنة لا بد منها لآى تجارة وقد أثرها الإسلام بل إن المصطفى عليه السلام نادى بنفسه على جلس وقعب لأحد الصحابة الذين عليهم طريقة الكسب المشروع وسماه العلماء « بيع من يزيد » حيث قال عليه السلام من يشتري هذين قال أحد الصحابة

(١) سورة الرحمن : الآية ٦ .

(٢) متفق عليه - انظر شرح السنة للإمام البغوى ٤ / ٤١٩ .

(٣) قد بحث عنه كثير في الكتب الحديثة ولم أجد فهو مشهور لدى عامة الناس .

أنا آخذهما بدرهم فقال عليه السلام « من يزيد » فقال أحد الصديقين آخذهما بدرهمين فباعهما عليه السلام (١) .

فإن خال الدلالة تحت الأعمال الضدقية والوهمية والظنية والكسب الطبيعي من أعجب ما فطره الدلجى إلا أن كان يقصد مصطلحا آخر مصطلح الدلالة بمعناه الإقتصادي المتعارف عليه بين الناس على أننى ما مصطلحا بهذا المعنى رغم محاولتى البحث حتى يكون للمؤلف العذر .
نهى عليه السلام أن يبيع حاضر لباد ثم قال عليه السلام (أى لا يبيع سمساراً) (٢) ، وقد سمي المصطفى عليه السلام التجار تجاراً بعد أن يسمون سمسرة قبل ذلك حيث قال « يا معشر التجار » (٣) .

ولا يعنى هذا التقليل من شأن الدلالة بل إنها مهنة شريفة وقد ما الرسول عليه السلام وأقرها بين صحابته بل لا بد للتجارة منها قديما وحديثا وربما تكون الدلالة فى عهد الدلجى لها حيلها وطرقاتها الملتوية التى تـ الشريعة والكسب الطبيعى وإذا كان الأمر كذلك فعلا فإنه كان على الأئمة أن يبحثوا عن الحل الصحيح دون اللجوء إلى إدغالها ضمن الكسب الطبيعى ...

٣ — لكن ما الذى يدفع الإنسان إلى القيام بتلك الأعمال العقيمة هو العجز عن ممارسة الأعمال الطبيعية فى الكسب ؟ يرى الدلجى ذلك يكون صادقا من خلال واقعه ، ولكن يمكن أن يقال أيضا أن ذلك

(١) صحيح البخارى ومسلم - ٣٥٣/٤ ، ١١٥٥/٣ .

(٢) متفق عليه — وانظر الكلام عليه فى التلخيص الجبر لا بن حجر ١٦/٣ .

(٣) المسند ٦/٤ ، ٢٨٠ ، وموارد المظان ١/٢٦٩ .

الذراع إلى الكسب السريع كما قدمنا . دون عناء أو مشقة تذكر ولا سيما
والناس كثيراً ما تنطلي عليهم الحيلة ، والبهرجة ومع ذلك فهو لا يدل
أبدأ على عجزهم عن القيام بالأعمال الطبيعية كما قاله الدجى وإلا لا التمسنا
لهم العذر في انصرافهم إلى ذلك خيث أعتهم الحيل عن الكسب الطبيعي
ولو حصل هذا فعلاً لكان على ولى الأمر أن يهيء لهم عملاً شريعياً شريفاً
بعيداً عن المكاسب المحرمة التى تقع فيها الفقير إذا كان ذلك اضطراراً
ولكن بالتأكيد أنه ليس مضطراً إلى ذلك أبدأ بل هو بطوعه واختياره
يميل إلى هذه الأعمال العقيمة رغبة في الكسب والربح السريع لسرعة تهافت
الناس عليه وجهم للبهل تحت تأثير هذه الخزعبلات وإلا فلو أن المجتمع
قاطع أمثال هؤلاء المشعوذين لما كانت لهم سوق رائجة يخدعون بها السذج
من العوام وربما بعض المثقفين . .

٤ - ثم أن الدجى قصر هذه الأعمال العقيمة على المغلوكين وهو كلام
غير مقبول منه ذلك لأن هذه الممارسات تدر عائداً وأموالاً طائلة بالطبع
فإن الذى يتوقع أن يمارسها هم الأغنياء قبل الفقراء ومعنى ذلك أن شيوع
مثل هذه الأعمال لا يقتصر على المغاليك من جهة ولا يتوقف على العجز عن
ممارسة النشاط الإقتصادى الطبيعى من جهة أخرى . .

وإن أردنا أن نستدل من واقعنا اليومى فإننا نرى مئات من أمثال تلك
الممارسات الشاذة تحت أسماء مختلفة لا يمارسها الفقراء بل الطبقات
الطبقية في المجتمعات . .

تاسعا : ولوعهم بالأسفار ومخاطرتهم بنفوسهم فيها مع ما فيه من
من العذاب المذاب و

قال صلى الله عليه وسلم (السفر قطعة من العذاب)^(١) .

ويرجع الدلجى سبب أسفار المفلوكين (أنه متى استولت عليهم
الفلاكة فى بلد واضطرب فى إرجائها وتسكع فى طرق معاشها وذاق طبايع
أهلها وأبت تلك البلد عليه إلا نبوا ودفعا ومحالفة عن المطلوب ومل
وجورها لاخير فيها فحينئذ يظن أن بقاءه فى تلك البلد مستحيل والبلد الثانى
يظن به الخير فيجب حينئذ السفر . . ولكن موجبات الفلاكة مصاحبة له
فى أى بلد فيكون كمن قصده شخص لقتله بالسيف وهو على سطح عمال
فيرمى بنفسه إلى الأرض وإن كان ذلك أحد الطريقين فى هلاكه)^(٢) .

ولسنا مع الدلجى فى هذا فإن خبرة السابقين واللاحقين أن التنقل
والأسفار من بلد إلى بلد هو من وسائل إبعاد الفقر والإملاق فينصرف فى
بلاد الله الواسعة على حياة جديدة وإذا كان تجربة الدلجى شخصية حسبا
جاء فى ثانيا كتابه فإن السفر لا يعنى الإفلاس دائما كما أنه لا يعنى المجد والغنى
دائما إذن فولوع المفلوك بالسفر من أجل تنمية زوال فلاكته وفقره وهذا
محموده منه وإذا اتصف بهذه الصفة فليست صفة سلبية كما أراد الدلجى
إلصاقها به وأنها تماما كمن يقع من السطح عند رؤية من يلاحقه فهذا هلاك

(١) صحيح ابن حبان ١٦٠/٤ ، تاريخ بغداد ١٠/٩٤ .

(٢) ص ٢٢ من كتاب الفلاكة والمفلوكون

محقق ولكن السفر وإن كان قطعة من العذاب كما ورد عن الرسول عليه السلام فإن النتيجة في أغلب الأحيان محمودة أو على الأقل تكون النتائج أن المفلوك بذل الجهد في كل مكان حيث اضطرب في أرض الله وفعل ما عليه فيستريح قلبه وترتاح لما أنه بذل الجهد وأدى ما عليه من طلبه للرزق في كل أرض الله . . .

مناقشة الدلجى فى الصفات السابقة

وإذا كنا قد ناقشنا مناقشة شبة تفصيلية أثناء حديثه عن كل صفة فإننا نرى من المستحسن أن نزيد فى المناقشة سطور أخرى . .

(أ) الدلجى قدم الوصف ولم يقدم العلاج :

فى الواقع أن الصفات التى أوردها الدلجى تتسع وتمتد لتشمل نواح عدة اجتماعية ونفسية وعقلية وإقتصادية والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هل الفقراء يتسمون بهذه الصفات دون غيرهم أم أن هذه الصفات ألصق بهم من غيرهم ؟ ففعل الدلجى يصف واقعا عاشه وشاهده أو لعل الدلجى قام بعملية وصفية لظاهرة معينة شاهدها بعينه ولعل بحثه ونظرته هذه كانت شبة ميدانية لكنها لاتصل للإستقراء المتبع الشامل . .

وكنا نود أن لوقام الدلجى بعملية تفسيرية وتوجيهية لها ولم يقتصر على الوصف بل تعداه إلى العلاج وهذا ما لم نجده عند الدلجى رحمه الله . .

(ب) ليس كل فقير مذموم :

ومن ناحية أخرى فعلىنا أن نفرق بدقة بين الفقير أو الفلاكة وبين الفقير أو المفلوك فإذا كان الفقير مثلاً وضعياً وحالة مذمومة فليس بالضرورة أن يذم الفقير وأن يوصف بأقذع الصفات كما فعل الدلجى ، فالفقير فى نظرنا كالمرض فلا أحد يجب المرض أو يمدحه ومع ذلك فليس من المعتقد أن يذم المرضي وقل مثل ذلك بالنسبة للفقراء . . غاية الأمر أن الفقير أو المفلوك ينظر فيه إلى سبب فقره أو فلاكته فإن كان فقره ناتجاً عن غير تقصير أو تغريط منه فلا يلام بل يكرم ويعان وإلا فهو محل لوم

وعتاب بل ولا يستحق التقدير بل هو كم مهمل بل هو نشاز يعيش على
فئات الآخرين . . وهذا ما ذمه الاسلام حيث نهى عن العطالة والبطالة
وشجع على العمل ودعا إليه . .

(ج) المجتمع يساهم في الفقر :

وفي الكثير الخالب نجد أن من أسباب فقر الفقراء هو المجتمع نفسه
وخاصة الفئة الغنية التي تتسلط على الآخرين من الضعفاء كالأجراء
والمزارعين وأصحاب الحرف الصغيرة وإذن فتلك جريرة مجتمع وليست
جريرة فئة فقيرة أى أن الفقر غالباً ما ينشأ عن ظلم من قبل الغير .

(د) ولم يشر الدلجى إلى ظلم المجتمع للفقير :

والعجيب أن الدلجى لم يشر إلى هذا الجانب إلا اشارات يسيرة عند
حديثه عن الأسباب للعاش - نشير إليها في حينها - مع أهميته في الموضوع
بل صب جام غضبه على الفقراء والمفلوكين أنفسهم قائلاً أنهم هم السبب في
جلب الفقر . . بيد أنه أشار إلى أن من ضمن الصفات للفقراء تلك الصفات
الذميمة التي ألصقها بهم نابعة ونتيجة عن نظرة المجتمع إليهم واقرأ مثلاً
صفة « احتقار الناس لهم . . وأن الفقير مكره ومقهور » ولكن تحليله
كان قاصراً على غير عادته . .

(هـ) عود على بدء :

وإن كان لموقف الدلجى هنا من أهمية ذات بالفقر والفلاكة
والتمييز منها لكنه يقدم لنا الدراسة المقنعة - بالبديلة - كعلاج لهذه
المشكلة بل عرى الفقر والفلاكة ولم يفعل شيئاً بعد ذلك . .

والموقف الإسلامى للفقر أصبح وأعمق مما فعله الدلجى فهو يفرق بين
الفقر والفقراء ، فالفقر وإن ذم إلا أن الفقراء لا يذمون مطلقاً بل ينتظر
إلى سبب فقرهم — كما قدمنا — فإن كان فقرهم بأيديهم وبسببهم فهم
محل ذم (اليد العليا خير من اليد السفلى)^(١) وإلا فهم محل رعاية وعطف
ويوجه الحديث للمجتمع الذى يعيشون فيه بإعطائهم حقوقهم كاملة غير
منقوصة بل والقيام بواجبهم ورعايتهم حتى تزول فلاكتهم أو تخف حدتها..

(و) دفوة من الدلجى :

وفي تقديرى أن تلك النظرة من الدلجى حول تعامله على الفقير فحسب
تعتبر أكبر دفوة أو خطأ وقع فيه فى مناقشاته وبحثه ولا أدرى ما الذى
جعله ينجو هذا المنحى — فهل كان الفقراء فى عصره فقراء برغبتهم وبسبب
منهم ؟ وهل كان الأغنياء فى عصره يقومون بواجبهم على النحو المطلوب ؟
أم أنه شغل فحسب بتسجيل وضع وظاهرة معينة لفئة من المجتمع دون أن
يعنى بالتحرف على منشأ المشكلة وما هم فيه وكيفية التخلص منه ؟ هذه
أسئلة ولا تقصد بها الحصر بقدر ما نقصد منها أن النظرة المتجاهلة على
الفقير لم تكن موفقة حين ناقشها الدلجى بالكيفية التى عرضناها :

(ز) وقصود آخر : وأين الآثار الاجتماعية والاقتصادية السلبية ؟

كذلك من جوانب القصود لدى الدلجى فى معالجته لهذه المسألة عدم
تعرضه للآثار الاجتماعية والاقتصادية السلبية التى قد يقع فيها الفقير
كالجرائم المالية مثل السرقة والنهب وقطع الطريق وما يتبع ذلك من

(١) متفق عليه — تحفة المحتاج رقم ١٠٠١ ج ٢ ، البخارى ٣٠/١ ، مسلم

إخلال بالأمن وإرهاب للمجتمع وتحول بعض الفقراء إلى قطاع طرق وبالتالي يكونون هم السبب في نبذ المجتمع لهم وكراهية لهم وقديما أقدم الفقراء في عهد عمر على السرقة لحاجتهم لا حباً في السرقة لأن الإسلام داخل نفوسهم فكان هذا سبباً في درء حد القلع عنهم بل وكان هذا التصرف سبباً في قول الحلفية لسيدهم - وكانوا مملوكين أرقاء - إن سرقوا مره أخرى قطعت يدك أنت فهذا جانب من حماية أموال الناس وفي نفس الوقت جانب من الزجر للتسبب نفسه وهو هنا ليس الفقير بل هو المجتمع الظالم له^(١) ، وكانت هذه القصة عام الرمادة - عام الرمادة - عام المجاعة - في السنة السابعة عشرة للهجرة . . . ولم يكتف الفاروق بهذا بل حمل سيدهم قيمة الناقة مرتين تعزيراً له قائلاً إنك تجميع عمالك . .

وسلبيات أخرى للفقير لم يذكرها الدلجى :

١ - الفقر خطر على العقيدة :

وبخاصة الفقر المدقع وبالأخص إذا كان هو الساعى الكادح فهو وسيلة الشك في حكمة الله في السكون ولارتياح في عدالة التوزيع والشيطان يوسوس للفقير (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء)^(٢) ، ولهذا روى عنه عليه السلام (كاد الفقر أن يكون كفراً)^(٣) ، (اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر)^(٤) وتعوذ الفقير والكفر مرتبطين . .

(١) انظر د. يوسف القرضاوى في كتابه الإسلام ومشكلة الفقر ص ١٣ - ١٨ .

بتصرف كثير . .

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٨ .

(٢) صحيح ابن حبان - رقم ١٨٢١ - ١٨٣/٢ هـ أبى هريرة .

(٣) ص ٥١ من كتاب الكسب: محمد بن الحسن الشهابى - ومسنده أحمد ٥/٣٠٣ .

(٤) الفكر الاقتصادى (٧)

٢ — الفقر خطر على الأخلاق والسلوك :

وإذا كان الفقر خطراً على العقيدة فليس بأقل خطورة على السلوك والأخلاق ولهذا قالوا « صوت المعدة أقوى من صوت الضمير » وقد بين عليه السلام شدة وطأة الفقر على صاحبه وأثره في سلوكه حيث قال (خذوا العطاء مادام عطاءً فإذا صار رشوة على الدين فلا تأخذوه ألتسم بتاركه تمنعكم الحاجة والفقر)^(١) وإذا استدان الرجل حدث فكذب ووعد فأخلف .. ولا يستدين إلا من حاجة ماسة غالباً ..

٣ — الفقر خطر على الفكر :

روى عن الإمام بن الحسن أن الجارية أخبرته يوماً في مجلسه أن الدقيق فقد فقال لها قاتلك الله لقد أضعت من رأسي أربعين مسألة من مسائل الفقه .. وروى عن الإمام أبي حنيفة أنه قال « لا تشتت من ليس في بيته دقيق » أي لأنه مشتت الفكر مشغول البال فلا يكون حكمه سديداً . والأصل في هذا حديث الرسول عليه السلام (لا يقضى القاضى وهو غضبان)^(٢) وقاسى الفقهاء على الغضب شدة الجوع وشدة العطش ..

٤ — الفقر خطر على أمن المجتمع :

وسلامه واستقراره وقد روى عن أبي ذر قوله (عجبت لمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه ؟ ..

وقد يصبر المرء إذا كان الفهر ناشئاً عن قلة الموارد وكثرة الناس لكن

(١) فيض القدير للمناذري ٤٣٥/٢ - ورمز له السيوطي بالصحة .

(٢) المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣٧/٥ .

إذا نشأ عن سوء توزيع الثروة وبغى بعض الناس على بعض وظهور النرف في جانب واحد فهذا مما يثير كوامن الفقير البهغو في أركان المحبة بين الناس والإخاء الود . .

هـ - الفقر خطر على الصحة العامة الجسمية والنفسية :

لما يتبين عادة من سوء التغذية وسوء التهوية وسوء السكن والصحة النفسية لما يلازمة عادة من الضجر والقلق والسخط ولما ينشأ عنه عادة من الأمراض لقللة ذات اليد فلا يستطيع القيام بقيمة الدواء وقيمة العمليات في المستشفيات سواء التي تعالج البدن أو التي تعالج الصحة النفسية فيكون عرضة لأمراض الدرن ونحوه من الأمراض المقيمة في الجسم وتحتاج إلى علاج مستمر دائم ومعلوم أن الدواء من الصيدليات وغيرها يبالغ في سعره وكذلك أسعار الأطباء وخاصة إذا كان يحتاج إلى سفر عن بلاده فمن أين للفقير بتكلفة السفر ومصروفات العلاج ولهذا تكثر في الدول المستشفيات المجانية لمساعدة المرضى الفقراء ومساهمة منها في بذل الأمن الصحي مجانا حتى يرتاح المواطن . .

الفلاكة المالية والفلاكة الحالية

الترابط الوثيق بين الجاه والمال :

سبق علمي :

تناول الدلجى موضوعا هاما وخاصة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية فقد بين أن المفلوك « الفقير ماليا » هو أيضا « فقير حاليا » بمعنى أن المال والثروة تورث الجاه المركز الاجتماعي وهما بدورهما يجلبان الأموال والثروات بينما فقدان المال لا يقف عند محسرد فقده بل ليتعداه إلى فقر وفقد الجاه والمركز الاجتماعي وفقرهما يعود على المفلوك بالمزيد من الفلاكة . . وقد وضع الدلجى ذلك بقوله « إن المال ملك الأعيان والمنافع والجاه ملك القلوب واستسخر أصحابها في الأغراض والأعمال لما فيها لذى الجاه من اعتقاد الكمال والاتفات إليه . . والمفلوك لاجاه له ولا مال وكل من لاجاه له ولا مال له فهو مسلوب القدرة » (١) . وهكذا نجد المفلوك نادرا ما يحقق مراده ومقصوده إلا بالاستعانة بغيره ثم يضيف الدلجى قائلا « إن الغنى تتسارع إليه الناس لقضاء حوائجه ومطلوباته عكس الفقير فإنها تتباعد عنه حيث لا مأرب لها فيه ولا غرض » (٢) ، والدلجى يترجم بهذا بلغة علمية اقتصادية ميل الناس إلى المال وصاحب المال وما يورث من جاه لديهم وترجم الشعراء ذلك بقولهم :

رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مال
ومن لا عنده مال فعنه الناس قد مالوا

(١) ص ٥٦ من الكتاب .

(٢) ص ٥٧ من الكتاب .

والمقامة الدينارية للحريرى^(١) توضح وجهة الناس نحو حبهم وميلهم
لصاحب المال ..

وهذا حق شائع في دنيا الناس فانظر مثلاً الأجهزة والمؤسسات تسارع
لتلبية مطالب الأغنياء فتزداد غنى على غنى ومن ثم جاء على جناح بينما تحجم
عن مساعدة الفقراء فتزداد فقراً على فقره ..

والعجيب أن الدلجى في تناوله لهذه الظاهرة الخطيرة بين أنه غالباً
ما لا يدرك الأفراد من هؤلاء الأغنياء أى شيء مما أملوه ورجوه ..

ومعنى ذلك ضياع المزيد من الثروة خاصة لو نظرنا إلى ما يسببه هؤلاء
من إطلاق وتفليس للكثير من الأجهزة والمؤسسات ..

كذلك فإن الأغنياء وذوى الجاه يتداولون الأموال فيما بينهم فهم بهذا
يتبعدون عن الفقراء إلا في استعمالهم في مجال الخدمات الصغيرة التي لا تعود
على الفقير بجدوى كبيرة ..

وهكذا نجد الدلجى وقد وضع أيدينا على إحدى الظواهر الإقتصادية
المتقدمة أنها ظاهرة الترابط الوثيق بين المال والجاه - وهو في هذا غير
مسبق - على حد استقراءنا وعلينا - اللهم إلا من إشارات وردت في هذا
الموضوع في مقدمة ابن خلدون ، ومقامات الحريرى ..

ولنا تعليق :

ونختم صفات المفلوكين بمناقشة المؤلف رحمه الله بأننا وإن وافقناه

(١) مقامات الحريرى - المقامة الثالثة - المسماة بالدينارية - المكتبة التجارية الكبرى -

بشارع عمدة طي بمصر - د ٥ ت .

على هذه الصفات فإنها صفة عرضية فهي صفة للفقير نفسه لا صفة للفقير ذلك لأن الفقر عارض ثم يزول فالله عز وجل يعطي ويغني ويفقر فكم من غني أصبح فقيراً لصق بالتراب وكم من فقير أصبح غنياً والله يؤتي المال من يشاء اختباراً وابتلاءً فالفقر اختبار والغنى اختبار أيضاً فهل يقال إن الصفات تلازم الشخص ملازمة الظل أم أنها تلازمه حالة فقره وتزول حالة غناه والحق إن شاء الله . أن الدلجى أوفى الموضوع حقه في ذكره هذه الصفات الملازمة للفقير حالة فقره . . .

ولكن الدلجى مع ذلك عرى الفقير وجعله كما هم ملا حاقداً حاسداً متمنياً زوال نعمته الآخرين عنهم متمنياً زوال هذه الأحوال الطيبة عن الناس وانقلاب الأمور وهذا مبالغته منه فإن كان في بعض الفقراء فلن يكون في كل الفقراء ، ولئن كان في الفقراء هذه الصفات فغيرهم أيضاً يتصفون بهذه الصفات فهل يقال أن الفقر هو منشأ هذه الصفات ربما !!!

الفصل الثالث

أسباب الفقر والفلاحة

من المسؤول عن الفقر

تحدث الدلجى فى القسم الأول من كتابه عن الفقير والفقراء وعن مظاهرهما وآثارهما . .

ولكن ماذا عن أسباب الفقر وهو جانب أساسى خطير وهام فى الموضوع الذى يتحدث عنه الدلجى فما هى العوامل المسؤولة عن سيادتهما وتفشيهما فى الجنس البشرى ؟

وقد تنبه الدلجى إلى هذا الموضوع الهام ولم يفته أن يتناوله بالدراسة والبحث وهى دراسة اقتصادية بحثه وأدخل ضمنها أسبابا اجتماعية .

الفلاكة غالبية على الجنس البشرى :

يرى الدلجى أن الفلاكة «الفقر» غالبية على الجنس البشرى وأن الكثير من بنى الإنسان إما عند مستوى الإملاق أو فوق ذلك بقليل .

ترى ما هى أسباب ذلك ؟

ذكر الدلجى أسبابا عديدة على النحو التالى :

(الثروة والغنى أما أنها موروثية أو مكتسبة . أما المكتسبة فمصادرها ومجالاتها هى الإمارة والتجارة والفلاحة والصناعة)^(١) .

(١) ص ٥٣ من الكتاب .

أولا : التجارة

يتحدث الدلجى فى كتابه الفلاكة والمفلوكين عن التجارة وقال أنها
لكى تنجح لا بد من الآتى :

أولا : — السيولة النقدية :

فالتجارة تحتاج إلى رأس مال كبير ليساعد على دوراته ، وهذه نظرة
ثاقبة بالسيولة تهتم الدورات التجارية ورجال الأعمال بل هى مجال سير
أعمالهم ، إذ هى التى بواسطتها يستطيعون تنمية الأسواق ، وتغذية التجارة
بصفة مستمرة ..

ثانيا : — دراسة السوق ومتابعته :

يرى الدلجى أن الأمور فى السوق لا تيسر كلها فى البيع والشراء بنظام
واحد ، بل أن هناك بضائع تسكد وبضائع تباع بسرعة^(١) ولا شك أن
هذه الفكرة من أهم الأفكار الاقتصادية إذ يشير إلى وجوب دراسة
السوق ومعرفة البضائع والانتقاء ومحاولة ذلك لا تتم إلا بالاستمرار فى
السوق السكسب والخبرة الميدانية ..

ثالثا — فكرة البضائع الموسمية :

ينصح الدلجى التجار أن يسرعوا فى بيع تجارتهم السكاسدة فقد يأتى
لها يوم تتحسن فيه فإن ما لا يحتاجه الناس اليوم قد يحتاجونه غداً وهكذا
عن فكرة البضائع الموسمية للدورة فى كل موسم ..

(١) ص ٥٣ من الكتاب .

١٠٧

رابعاً — التنويع في البضاعة :

أشار الدلجى إلى نقطة هامة للتاجر : وهى أن عليه تنويع بضاعته وكثرة العرض للنماذج حتى إذا كسد نوع سار النوع الآخر فيكون الربح سبباً في تغطية التكاليف بسرعة . .

خامساً — الخبرة والدراية :

يقول الدلجى : وأيضاً فهمى — أى التجارة — تحتاج إلى بصيرة تامة ودراية وافية وتجزئة كاملة ليؤمن بها غش الباعة وخلاتهم — أى خداعهم — وترويح السماسرة كواسدهم ومفتقرة إلى فراسة صادقة وحس صحيح ليضع كل سلعته فى حاق — أى مكان — موضعها زبوناً وسوماً وترخيصها وإغلاء وحلولا وتأجيلاً أو تعجيلاً ، ونفوس الناس غالباً ظلمانية لخلوها عن العلوم العقلية والأعمال الرياضية فهمى يعيده عن البصيرة . .

سادساً — التدرج فى التجارة وعوائقه :

يرى الدلجى أن السيادة الكسبية — كما سماها — لاتصير دفعة واحدة وإنما تكون بالتدريج ، ومكيدة تتميتها ، ومعالجة زوال مواقعها مع كثرة الصادين عنها والعوارض العائقة عنها أمر عسير بطيء السير فيقتضى الإنسان شطراً عمره أو معظمه فى فلاكة وإدبار (١) . .

ومن عوائق التجارة أيضاً :

شراء السلطان الغاشم وحاشيته فلمهم سلطتهم فهم كالغاصيين للتجار . .

تقريبهم من الملك وحامية الدولة وخاصة المخادعين بالاستبدانة والأرباح الكاذبة والمواعيد الباطلة والرهون غير المملوكة والالتجاء إلى الاعسارات والحيل الشرعية والاستعانة بشهود الزور ووكلاء السوء وربما تكون على التاجر الماهر فأفقد ، وأعاقه عن أمثاله من التجار حتى أتى على رأس ماله^(١) وهذا التحليل الجيد العظيم من الدلجى يبين أهمية الأمن والاستقرار اللذان هما شرط أكيد لنجاح التجارة ، وذهاب الخوف عن التاجر أمكن في النماء وأكد في الاستقرار ولذلك ذكر القرآن ذلك في منتهى على قریش «لایلاف قریش لایلافهم رحلة الشتاء والصیف»^(٢) . .

ومن هذه الدراسة التحليلية عن التجارة في رأى الدلجى نلخصها في عوامل ثلاثة :

العامل الأول : توافر قدر كبير من رأس المال :

يستطيع الإنسان به أن يلبح وجوداً عديدة من التجارة ولا يقتصر على وجه واحد منها حتى إذا أ. كسد وجه جبره وجه آخر فلا يضيع رأس المال . . أو بعبارة أخرى تنوع الأعمال لتقليل فرص الخسائر من جهة وتوفير السيولة من جهة أخرى حتى لا يضطر لبيع شيء أبان كساده . . هذا عامل أساسى لقيام النشاط التجارى الناجح وللمكن كما يقول الدلجى فإن أيدى الناس خالية عن الأموال القابلة لما وصفناه غالباً وهذه عبارته : «فالتجارة مفتقرة إلى مادة متسعة ورأس مال كبير يدار في وجوه الأرباح والثمار ويوزع على أنواع المتاجر لينجبر كساده بعضها بنفاق الأجر

(١) الفلاحة والمفوكون ص ٥٤ .

(٢) سورة قریش : الآيات ١ ، ٢ .

وليستعان بالنافق على إدخار الكاسد ارتقابا لحواله الأسواق واستدرازا
للشفاق» (١) . .

العامل الثاني : العنصر البشرى :

وهذا يتطلبه النشاط التجارى فلا بد من ضرورة توفر الكفايات
والمهارات التجارية لدى الإنسان أو بمعنى آخر عنصر الخبرة والدراية
والمعرفة إذ أن التجارة تحتاج إلى توافر القدر الكبير من ذلك ، كما أنها
في حاجة إلى قدرة كبيرة على التنبؤ والتوقعات والعمل والتفكير للمستقبل
ووضع الاحتمالات ودراسات الجدوى الاقتصادية وإدخال ذلك تحت
الحسبان والدراسة المستمرة ، وهذا العامل قل أن يتوفر لدى الناس لغلبة
الجهل عليهم وأميةهم في العلوم العقلية والرياضية والاقتصادية ، وهذه
عبارة الدلجى : « وأيضاً فهى محتاجة إلى بصيرة تامة ودراية وافية وتجربة
كاملة ليؤمن بها غش الباعة وخلايتهم ومفتقرة إلى فراسة صادقة وحدث
صحيح ليضع كل سلعة في موضعها » (٢) . .

العامل الثالث : المناخ الاجتماعى والسياسى والادارى السائد :

فإن التجار لا يمارسون أعمالهم من فراغ وإنما يمارسون التجارة في
وسط معين هذا الوسط غالباً غير مثلاًئم أو غير متناسب وذلك بوجود
السياسات الاقتصادية وغيرها التى هى عادة ما تكون في غير صالحهم
وهذه عبارة الدلجى « ونفوس الناس غالباً ظلمانية تخلوها عن العلوم العقلية
والأعمال الرياضية فهى بعيدة عن البصيرة وأيضاً فالأيدى الغاصبة مسؤولة

(١) ص ٥٣ من كتاب الفلاكة والمفلوكون .

(٢) ص ٥٣ من كتاب الفلاكة والمفلوكون .

على الجار لمقهور يتهم مع الدولة وخاصة المخادعين بالاستدانة ، (١) . .

هذه هي العوامل الثلاثة أو المقدمات الثلاث التي يجب توافرها في قيام النشاط الاقتصادي التجاري الفعال وهي كما ذهب الدلجى غير متوفرة ومن ثم فإن التجارة لم تعد بابا للثروة والغنى إلا إذا توفرت أسبابها وتشح الأسباب عند الأغلبية من الناس . .

ثانيا - الزراعة

تتطلب الزراعة مقومات عديدة قل أن تتوفر للمزارع ومن ذلك :

(أ) ملائمة المناخ : من برد وحر ومطر وهواء وكوارث سماوية وكثيرا ما تكون تلك العوامل غير ملائمة . .

(ب) لا بد من ملائمة العوامل الأرضية ، التربة ، .

(ج) كذلك مقاومة الآفات والحشرات الضارة بالزراعة : وهذه عبارة الدلجى .

(د) عامل اقتصادى هام : ثم هناك عامل اقتصادى هام جدا نبه إليه الدلجى ويعتبر منه إسهاما فعالا في المجال الإقتصادي وهو : أنه عدم ملائمة أسعار المنتجات الزراعية إذ أن رخصها مع غلاء البنود والتكاليف المختلفة تؤدي إلى اضمحلال الزراعة وهذه عبارته : « ومن رخص البقول والخضروات وما في معناها مما لا يقبل الإدخار مع غلاء بنودها وإلجاء

(١) ص ٤٤ من الكتاب .

المزارعين إلى بيع زراعتها في حال كسادها وعدم رواجها^(١) . .

وهذا عامل هام نوافقه عليه ولا يزال هذا العامل مستمراً حتى عصرنا الحاضر . .

(هـ) وكذلك الجبايات والمظالم والضرائب والرسوم التي تفرض على المزارعين مما يجعل النشاط الزراعي غير مجدد وغير مرغوب فيه وهذا عامل هام أيضاً وخطير . . وهذه عبارته : « تسليط الظلمة عليهم واستعبادهم وتوسيع شروط مقاسمتهم وفرض الفرائض والتفنن في وجوب الجبايات وأنواع الظلالمات مما يفوت عليهم الأعمال السكمانية المصلحية »^(٢) . .

لماذا لا بد من :

تأمين السياسات الزراعية والضريبة الملائمة للنشاط الزراعي حتى تساهم في إغناء الأفراد وإبعاد شبح الفقر والإملاق عنهم . .

ولاشك أن الدلجي قد أصاب كبدا الحقيقة عند ما نبه على تلك العوامل وكأنه يقول لكل مجتمع إذا ما أراد الزراعة والنهوض بها أن يلاحظ تلك العوامل الهامة وخاصة منها ما يتعلق بالسياسات السعيرية والضريبية . .

فتبين :

(١) أن رخص الأسعار للمواد مثل البقول والخضروات يؤثر في المواد المنتجة . .

(١) ص ٤٤ من كتاب الفلاحة والمطوكون .

(٢) ص ٤٤ من كتاب الفلاحة والمطوكون .

(ب) أن الضرائب المفروضة كلما زادت نسبتها فإن ذلك يؤثر على المواد المنتجة على الريع والعائد . .

(ج) أن احتكار الحكومة لبعض المنتجات والإستيلاء عليها له أثر سلبي على نشاط المزارع والمواطن حيث تأخذها بأسعار غير مجزية . .

(د) أن الحضارة والمدن لها أثر على طلب المواد الزراعية المنتجة . .

(هـ) أن العلم والخبرة والتقنية لها أثر على الزراعة وعلى المواد المنتجة . .

سبق آخر :

وقد تلبه الدلجى أن من أسباب تدهور الزراعة أن الدولة لا تستخدم العلوم ولا تحاول أن تستفيد منها لأن العلم من أهم عوامل التقدم الإنسانى وكذلك التكنولوجيا والتي تعتبر من مستلزمات التقدم الفنى سواء فى الزراعة أو فى غيرها وحتى أنه يقاس تقدم الدولة بمدى استخدامها للعلم والتكنولوجيا وأنها المعجزة للعلامة الدلجى فى اكتشافه أثر العلم فى الزراعة قبل أن يكشف ذلك علماء الاقتصاد فى العصر الحديث بقرون عديدة .

وسبق على آخر نراه هاما ونذبه عليه هنا :

أن هذه المعالجة لشؤون الزراعة بل تعداه إلى محاولة العلاج وأوصى بذلك الحكام بالنية الحسنة بالاتجاه نحو دراسة تلك العوامل التى ذكرها دراسة جادة والعمل على علاجها وهذا يعتبر فى نظرنا سبقا علميا تصدى له الدلجى بوضوح وجلاء . .

-- ١١٣ --

ما لم يتحدث عنه الدلجى فى الزراعة :

- ١ - لم يتحدث عن أثر الزراعة فى الاقتصاد القومى . .
- ٢ - لم يتكلم عن علاقة كل من الصناعة والتجارة والزراعة . .
- ٣ - لم يبين مقدار الدخل من الزراعة بيد أنه تكلم عن أثر الضرائب على الزراعة . .
- ٤ - لم يشر إلى الثروة الحيوانية وهى جزء خاص هام للزراع فى أيامه حيث لم تكن الميكينة موجودة بعد .
- ٥ - لم يتبين نوع تدخل الدولة فى الشؤون الزراعية . .

ومع ذلك :

فإنه يمكن أن يجاب على هذه التساؤلات بأن الدلجى هدف من حديثه عن الزراعة أنها طريق من طرق التكسب والمماش وحث الفرد عليها ليس إلا ؟ .

ثالثاً - الصناعة

ذهب الدلجى إلى أن الصناعة لم تعد باباً يصلح للغنى والثروة وذلك لأنها :

(أ) تتطلب مهارات معينة وقل أن تتوفر لدى الكثير من الأفراد إضافة إلى أنها .

(ب) كثيرة الفساد ورواجها غير مجد وهذه عبارته : « وأما الصناعة فلقلة الماهر فيها وعلى الجملة فالصنائع شاغلة لأصحابها عن الدعة والراحة » (١) (الفكر الإقتصادى)

والرفاهية ويطرقها الكساد كثيرا ونفاقها لا جدوى له ولا يحظى صاحبها
بظائل وأصحاب الصنائع باذلون فهم وعبوديتهم بأقل قليل للفقير والغنى المسلم
والذى فهم بمراحل عن الشهامة وعلوا الهمة والأنفة» (١) . .

المناقشة :

هذان سببان أو عاملان ذكرهما الدجى لعدم جدوى الصناعة ونحن
نقول أنه إذا كان من السهل أن نوافق الدجى على رأيه في ضرورة توفر
المهارات اللازمة للصناعة ، إلا أنه من الصعب موافقته على أن الصناعات
كسادا كثيرا ورواجها قليل . . اللهم إلا إذا كان هذا هو الحال في عصره
ولانعتقد ذلك أيضاً وخاصة إذا ما انصرفت الصناعات إلى الحرف
الصغيرة . .

وينبغي أن تكون مناقشتنا للدجى من عصره أما مناقشته من خلال
العصور اللاحقة كمصرنا فقد تغير مفهوم الصناعة وتحول إلى مفهوم كبير
واستقل مفهوم الحرف اليدوية البسيطة وهذا هو مفهوم الصناعة في عهد
الدجى إذ هي في الواقع حرف يدوية يقوم عليها أشخاص عاديون يتصفون
ببعض السلوكيات ذات النزع الملتوى الذى لا يتناسب وجدوى الحرف
وليس هذا في الحرفيين كلهم وإن كان الكثير منهم يتصف بصفات سلبية
كإخلاف الموعد وجحد المتاع ونسيانه وما شابه ذلك . .

(١) ص ٤٤ من كتاب الفلاحة والمفلوكون .

رابعاً : فقد التناصح والتعاون

عامل هام أشار إليه الدلجى وهو فى الواقع مبدأ إسلامى «وتعاونوا على البر والتقوى» ، «وأمرهم شورى بينهم» ، (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله) الحديث .. وغير ذلك من النصوص الدالة على التعاون والتناصح وعدم أكل أموال الناس بالباطل ويقصد الدلجى التعاون فى جهات المعاش الثلاث (التجارة - والزراعة - والصناعة) وأنها تفتقر إلى هذا العامل ويتأسف الدلجى لزوال هذا العامل وحل محله التباغض والتحاسد والتنافس والغش والاثرة الخ وهذه عبارة الدلجى : «ثم جهات المعاش الثلاثة مفتقرة إلى التعاون والتناصح وقد انقطعا من كافة البشر أوعامتهم لانساع موجبات التباغض والتماقت بكثرة مقتضيات الحسد وليجاوله كل واحد الآخر عن مراده الناشئة من الكبر والعجب والعداوة وفوق الإزدحام على مطلوب واحد» (١) ..

خامساً : سوء الإنفاق وعدم الرشد فيه

وهذا عامل آخر لا يقل أهمية عن تلك العوامل السابقة وهو عدم توفر السلوك الإقتصادى الرشيد تجاه ما يدخل للفرد من أموال فتصرف الفرد فى دخله محكوم بعوامل وشهوات بعيدة كل البعد عن الرشد الإقتصادى فهو صرف سفيه فى بعض الأحيان يذهب صباغة ما يحصل عليه الفرد ..

الدخل أكبر من الإنفاق الجارى الإستهلاك :

ويرى الدلجى ونحن معه : أن الدخل يجب أن يكون أكبر من الإنفاق

ولكن الواقع شيء آخر حيث أنه : كلما زاد الدخل زاد الاستهلاك :
وزيادة الاستهلاك لزيادة الدخل قد تكون شيئاً طبيعياً وقد تكون نتيجة
 عوامل غير رشيدة وعلى أية حال فالواقع الذي يصفه الدلجى وهو أنه كلما
 تجدد للإنسان دخل جدد له صرفاً وإنفاقاً ، وهو أمر متفق عليه بين كل
 الناس عامة والإقتصاديون بصفة خاصة . .

ولكن ماهى العوامل المسؤولة عن زيادة الإنفاق : نتيجة لزيادة الدخل ؟

سؤال طرحه الدلجى وأجاب عليه بقوله أنها عوامل عدة وهذه عبارته :
 « وأيضاً يقال على وجوه المعاش الثلاث أنه كل ما تجدد الإنسان دخل جدد
 له صرفاً أما للمباهاة والترفع على أمثاله أو إفراطاً في الشهوات أو خوفاً من
 سوء القالة بتنقيص ما يقتضيه حالة أو يكره مبغض لتلك النعمة عليه ، (١)

أى أنه كلما تجدد للإنسان دخل جدد له صرفاً أما :

- (أ) للمباهاة والترفع على أمثاله .
 - (ب) أو إفراطاً في الشهوات .
 - (ج) أو إنهماكاً في اللذات .
 - (د) أو خوفاً من سوء القالة وإلا سحدوثة بتنقيص ما يقتضيه حاله .
 - (هـ) أو يكره مبغض لتلك النعمة عليه .
 - (و) أو لأن الحالات المتجددة في دخله يلزمها تجدد في أمور صرفه .
- وهذه الأمور الستة التى لا يقصد بها الحصر فى الإنفاق يترتب عليها
 أن يبنى الشخص مفلوكاً مهما شؤن دخله . .

سادساً : عامل الزمن

يضاف إلى ما تقدم عامل هام آخر هو عامل الزمن فلا يتأتى الغنى ولا تتحقق الثروة عن طريق هذه المصادر إلا بعد فترة قد تطول من الزمن وهذه عبارة الدلجى : « وأيضا فوجوه المجد والسيادة المكتسبة لا تصير دفعة واحدة وإنما تكون بالتدريج والترقى ومكابدة تنميتها ومعالجة حوال مواقفها مع كثرة الصادين عنها والموارض المعانقة لها أمر عسير بطيء نقيض الإنسان شطر عمره أكثره أو معظمه في فلاكة وإدبار » (١) . .

هذه هي الإعتبارات التي جعلت الدلجى يرى أن هذه المصادر الطبيعية للمعاش لا تمكن الإنسان عادة أو غالبا من تحقيق الثروة والبجاه . .

سابعاً : الأمانة

فهي لا تمثل مصدراً للثروة والغنى لما تتطلبه من كثرة النفقات وهي من أوجه المعاش الطبيعي ولكن الدلجى لم يتعمق في بحثها ولكنه أشار إلى أن السالك في شئون الولاية كثيراً ما يحتاج إلى الإنفاق على الذين يفدون عليه وينتظرون منه العطاء بحكم مركزه وقيادته ومنصبه فلهذا يفلس سريعا ويفتقر لأنه لا يستطيع الاعتذار عن العطاء فدخله يقل عن خرجه وهذه عبارته : « وأما الأمانة فلا ينسك أن مبادئها مشتملة على نصيب وافر من الفلاكة والإدبار وبيان ذلك أن الأمر لا يتم إلا بالعصبية والتغلب والشوكة وقبح المعايذ والمجاهد وتأليف القلوب المتفرقة وتمهيد المسالك والتقسيم بحقوق لا تخص كثرة معاناة شدائد ومشاق وتعريض للنفس للمهلك وكرا ..

(١) ص ٥٥ من كتاب الفلاكة والمفلوكون .

الجنود مستعبدون مع مملكتهم مشغولون به عن أنفسهم مقدمون على مراده .
ولم سلم أن السلطنة والأماره خالية من الفلاكة فهي من القسم النادر ،^(١) .

وقد أضاف سببا آخر في فلاكه من يعشق الأماره والولاية من أن
الأماره وجه من وجوه المعيشة لا يتم إلا بالمعصية والشوكة وقمع المعاند
وبطبيعة الحال يحتاج هذا إلى أموال كثيرة إضافة إلى السبب الأول فمركزها
الاجتماعي جيد إلا أن مركزها المالى والعائد المادى قليل جداً لا يستفيد
منه هذا الوالى ونعتقد أن الدلجى استفاد هذه الفكرة من واقع المنازعات
الدائمة والمستمرة بين المماليك بعضهم بسبب اعتلاء عرش مصر . .

ثامناً : وجوه المعاش غير الطبيعى

يرى الدلجى أن ما تقدم وجوه معاش طبيعى أما عن وجوه المعاش
غير الطبيعى كالاسترزاق بالنجوم والكهانة وسائر الأرزاق الهوائية الخطفية .
الصدفية فهي الأخرى لا تمكن صاحبها من تحقيق الغنى والثروة وذلك لعدم
انتظامها ولأن من يعملون في تلك الأعمال هم أئمة المغلوكن عبر الدلجى
بقوله : « وأما غير الطبيعى كالاسترزاق بالكيمياء والتنجيم وسائر الأرزاق
الهوائية الخطفية فهي أرسخ قدما في الفلاكة والأدبار لأنها بمنزلة اللقطة
والعثور على دفائن الأرض لعدم انتظامها ووفاء محصولها »^(٢) . .

(١) ص ٥٥ من كتاب الفلاكة والمغلوكون .

(٢) ص ٥٥ من الكتاب .

تاسعاً : وجوه الكسب الموروثة

يرى الدلجى أن المال الموروث عرضة للنهب وللضياع سواء على أيدي الولاة والحكام أو على أيدي القائمين عليه من الوصاة وناظرى الوقف والمشرفين على الأيتام لعدم توفر الدراية والخبرة لليتيم والمحافظة على ماله وتنميته لو سلم له وأيضاً لسهولة صرفه لعدم تحمله مسؤولية كسبه والمشقة في جلبه وهذه عبارة الدلجى : أما الموروث فيطرقه أنواع من الفلاكة — الفقر — منها :

١ — امتداد أيدي الولاة والحكام إليه .

٢ — ومنها مذلة اليتيم — الوارث — وخضوعه وفقده نصيحة أبيه..

٣ — ومنها سهولة صرف ماله عليه لعدم تحمله مشاق جمعه وتشجيعه نصب الحبائل في تحصيله فيشرع فيه بالسرف والتبذير والسفه لعدم مهارته ودرسته عن الوفاء بمقاصد ماله والقيام بشروط تنميته وتثميده قليلاً قليلاً إلى أن يضمحل ويتلاشى ولا يحصل منه إلا على الملامة والتعير والندم . .

٤ — ومنها إنسكار المنكرين وكونه في رنة موروثة ومستحقاً لمن كان يعاون به موروثة ويساعد عليه فلا يؤمنون على دعائه ولا يساعفونه على قصره ولا يسرون معه سيرة مورثه ، فيقع من ذلك العناية العظيم والداء العفيم وبهذا التقرير يعلم أن الفلاكة غالبية على نوع الإنسان كاسيا أو وارثاً ، (١) . .

عوامل أخرى مسؤولة عن نشوء الفقر

وبعد هذه الرحلة مع الدلجى حول وجوه الكسب لنا كلمة :

أنه وإن صدق الدلجى فى تحليله لبعض العوامل السابقة المسؤولة عن الإعانة على وجوه الفقر والفقراء وخاصة ما يتعلق بالعوامل الاقتصادية فى المجالات التجارية والزراعية والحرفية إلا أن تحليله فيما يتعلق بالعوامل الأخرى محل نظر بالإضافة إلى عدم تناوله العوامل كثيرة هى فى الواقع مسؤولة فى الدرجة الأولى عن نشوء الفقر وطا أهميتها ونذكر منها ما يلى :

١ - الكوارث الطبيعية :

كاجدب والفيضانات والبرد الشديد وغرق السفن والمطر المتواصل والحر الشديد . .

٢ - المعاصى ومن أكبرها : « الربا »

فإذا تعامل التاجر بالربا محقت البركة منه والله يقول « يحق الله الربا ويربى الصدقات »^(١) فالربا كبيرة وهو من الموبقات المهلكات والله لا يخلف وعده فما نرى من إفلاس الشركات والمتاجر والحكومات يوما بعد يوم نتيجة وجود التعامل الربوى وما نراه من أمراض نفسية فى المجتمع عقاب للربا وخاصة الأمراض النفسية وما نراه من إسراف وبذخ وازهاق ناتج عن التعامل بالربا فهو يدخل تحت قوله تعالى « يحق الله الربا »^(٢) ومن

(١) سورة البقرة : الآية ٢٧٦ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٧٦ .

المعاصي أيضا بل ومن أكبرها أيضا منع الزكاة فإذا امتنعت الزكاة حبس الله القطر عنهم — أى المطر — حتى يتوبوا إلى الله ولا شك أن حبس المطر عن الناس فيه ضرر عليهم ولولا البهائم لم يمطروا . . والمطر هو الرزق يقول تعالى « وفي السماء رزقكم وما توعدون »^(١) ويقول تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء »^(٢) ولا شك أن من يمنع زكاة ماله وهى ركن من أركان الاسلام عاصى الله وغير مثق له بل أن ولى الأمر ينبغى عليه أن يستتيبهم ويحبره على أداء الزكاة فإن امتنع قتل وقد حارب أبو بكر الصديق ما نعى الزكاة واعتبرهم مرتدين عن الإسلام . . وهكذا كل معصية تزيل نعمة من النعم وبالعكس ذلك فكل طاعته تزيد النعم ويبارك لل مسلم فيها فانهقوى إذا فقدت من المجتمع نزعت منه البركة وحل عليه الجوع والمرض وغير ذلك نتيجة المعاصي . .

٣ — تظالم الناس فيما بينهم واستثمار القسوى بحق الضعيف . . وهذا مشاهد فى الأمم المسلمة وغير المسلمة فالإنسان جبل على الطمع وحب الذات والآنانية المفرطة والمادية ومحاوله جمع الأشياء والسكم دون نظر إلى محتاج أو ضعيف فيسحب البساط عن أخيه دون أن يكثر هذه النظرة غير إسلامية وغير شرعية جاءت للمسلمين من معاصيهم أولا وعدم اهتمامهم بأوامر الشريعة وتعمقت بعد ذلك فى المجتمع الإسلامى الحديث نتيجة للانفتاح القسرى والاقتصادى على الدول المادية الكافرة التى لا تؤمن إلا بالشئ والسكمى ولئن استطيع تحصيله فأخذ المسلمون هذه البدعة ونقلوها إلى مجتمعاتهم ونسوا وجوب الاهتمام بالمسلمين وأنهم جسد واحد وجسم واحد وأن المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله . .

(١) سورة الداهيات : آية ٢٢

(٢) سورة الأعراف : آية ٩٦

وأن الأمة لا ترزق ولا تنمى إلا بالضعفاء وأن الإسلام دين العدالة الاجتماعية والتكافل المادى فلهمذا كثر الفقراء في بلاد المسلمين كثرة تافمت النظر ولقد كانت في العمود السابقة هذه الظاهرة أقل بكثير نتيجة التطبيق الإقتصادى الإسلامى الراشد فبنى المجتمع المادى اليوم أفكاره الإقتصادية وسلوكه الاستهلاكى على الأثرة والاستبداد لاعلى الإيثار والعطف وصدق التوجه إلى الله فى التخفيف عن حاجة الفقير أو المسكين بل تركوه يلصق بالأرض ولم يحسوا بذلك بل لم يعتبروه إنسانا كفوا لأن يعيش معهم فهذه الذئاب الظالمة سرعان ما تفشل وتتحول إلى ذئاب فاترة يهدما الفقر والعدم نتيجة لعدم إهتمامها بضعيفها .

٤ - الحروب :

وهى سبب رئيسى من أسباب الفقر فكثرتها لا يخلف إلا الدمار للممتلكات والأنفس فيكثر اليتامى والنساء الأرامل والشيوخ الكبار فى السن وتزهق أصول الأموال وتتحول الدولة إلى دولة فقيرة فى رجالها مسؤولة عن شعب ما بين امرأة مسكينة لا حيلة لها وصبي صغير يتيم أو حدث لا يبلغ الرجال أو شيخ طاعن فى السن أما الشباب فقد اتهمهم الحرب ، أما المال فقد ذهب مع الشباب أما المساكن فأنقاض أما الموارد الاقتصادية ومصادر الرزق الرئيسية فقد دمرت وأصبحت هذه الدولة دولة فقيرة تعيش بين دول فاجرة ظالمة هى التى كانت السبب فى هذه الحروب .

٥ - النكسات الاقتصادية :

ولا شك أن من خير ما يساعد المرء بعد الله هو دراسته لجدوى المشاريع والاستشارات الاقتصادية قبل البدء فى أى مشروع تجارى فإن

ثبتت جدواه أو قدم عليه واستخار الله في ذلك وإن لم يكن توقف وانتقل إلى عمل آخر فإن لم يدرس المرء أى مشروع قبل الإقدام عليه فإنه سرعان ما يفشل لعدم وجود التخطيط والمشى بخطى مرسومة نتيجة الخبرة الذى أخذها من غيره ممن سبقه من بيوت الخبرة فالنكسات الاقتصادية كثيراً ما تهز الدول والشركات وبالتالي يتأثر الأفراد كل على حسبه فيصبح الأغنياء فقراء فى لحظة واحدة وهذا مشاهد فى الواقع فكثير من المحلات التجارية والشركات تعلن إغلاق محلاتها نتيجة النكسات الاقتصادية التى تهز مركز التاجر المالى فقد يخاطر فى بورصات مالية كبيرة لا خبرة له بها أو قد يشتري استوكيات كثيرة طمعاً فى أن يبيعها بسعر جيد وهكذا لا يصدف حدسه ولا يجد المشتري فيضطر إلى البيع بأى ثمن ومن ثم يشهر إفلاسه ..

٦ - العاهات الخلقية :

وهذا من الله جل وعلا ولا راد لقضائه وقدره وهو ابتلاء واختبار لهؤلاء وللناس جميعاً . فالزمن - بكسر الميم - والأعرج - والمعوق بصفه عامة فى غالب الأمر لا يستطيع أن يكسب عيشه فهو فى الواقع ضعيف يحتاج إلى المجتمع الذى يعطف عليه فيما تيه الفقر والفلاكة من هذه الناحية هذا أن نسبة المجتمع وإن لم يستطع أن يخرج بحرفة خاصة به وغالباً ما نجد المعوقين خيراً من بعض الذين ليس بهم بأس فتجده له حرفة وتجده لا يقبل أن يعيش عائلة على غيره ونجده بطرق أبواب الرزق مزاحماً الصحيح من الناس كتفا بكتف وما هذا إلا لينفى الفقر عن نفسه ومن هنا قيل « كل ذى عاهة جبار » ومع ذلك فهناك الذين لا يستطيعون الحصول على أبسط أمور الحياة المادية .

٧ — كسل الإنسان :

بعض الناس يأتية الفقر نتيجة غروره وكسله وبطالته الطبيعية فيه وحببه للتسكالية أن يبدش حالة على غيره فتصيبه الفلاكة والفقر إختبارا من نفسه . . . وبعبارة أخرى أنه إذا استطاع أن يأتية رزقه منا من السماء فلن يقتصر في ذلك والقفود له إلا من فهم معنى وجوده في الحياة وأنه مستخلف من الله فيها لعمارتها والمشي في مناكبها طالبا للرزق . . . وهذا في الواقع مشكلة المشاكل وأن كثرة مثل هذا فهي سببة وعار على المجتمعات فينبغي أن لا يحترم أمثال هؤلاء بل لا يشجعوا بل أن ينفوا عن المجتمع ويحرقوا ولقد فعل هذا عمر بن الخطاب وضربهم بالدرة قائلا لهم (اطلبوا الرزق فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة) وسأهم المتأكلون على الله ، واحتقر أيضا الشباب الذي ليس له حرفة بل وسقط من عينه فهذا سبب عن أسباب الفقر جلبه الانسان لنفسه وجدير به أن يبقى فقيرا دائما معدا حتى يتجرع كأس الاملاق حسب ما اختاره لنفسه فهو شخص حقير وكم مهمل حمى الله المجتمعات من أمثال هؤلاء . .

٨ — إبتلاء الإنسان من الله :

وهذا سبب آخر من أسباب الفقر وهو سبب إلهي يقول تعالى : « ولنبليكن بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » (١) فهذا إختبار من الله لعباده الفقراء وهل يصبرون على فقرهم وهو إختبار آخر لعباده الأغنياء هل يؤدي واجبه من نحو فقيرهم وضيمهم فالفقر والحالة هذه إختبار وامتحان وكذلك الغنى إبتلاء وإختبار فمن

(١) سورة البقرة: ١٥٥ .

رضى فله الرضى ومن سخط فعليه السخط . . ومع ذلك فلا يجوز للمسلم أن يقف هكذا وعليه أن يبحث عن مخرج من هذه القلة ولا يجوز له أن يمد يديه إلى الناس ليسألهم فعليه أن يعمل فكذا علم المصطفى عليه السلام صحابته والمسلمين جميعا حيث باع حلس الصحابي وقعبه وأعطاه قيمتهما قائلا اشتري بالآخر قدوما فأتاه به فجعل فيه عصا وقال له اذهب فاحتطب ثم عاد الصحابي وقد كسب عشرة دراهم فقال له عليه السلام هذا خير لك من أن تسأل الناس أعطوك أو منعوك) . .

الفصل الرابع

العلماء أكثر الفئات تعرضاً للفلاحة

سؤال طرحه الدجى قائلا : من هم أكثر الفئات تعرضاً للفلاحة ؟
وأجاب عليه بقوله أنهم العلماء وخصص لذلك فصلا من فصول كتابه
للإجابة عليه . .

ومبررات ذلك عند الدجى :

- (أ) - أن مجالات التكسب والاغتناء هم يبدون عنها .
 - فالإمارة عنهم بمعزل .
 - والتجارة بما فيها من سلوكيات غير مرضية لا يمارسونها .
 - وكذلك الزراعة والصناعة . .
- إذن فأحد عوامل فقر العلماء في نظر الدجى هو ترفهم عن الاشتغال
في مجالات النشاط الإقتصادى المختلفة . .

ولم يعجب الدجى هذا الموقف :

فوصف العلماء بأنهم يفعلهم هذا ويتعطيلهم مجال النشاط الإقتصادى
الطبيعى بما يلى :

الوصف الأول :

أنهم يتعلمون بالأمانى الكاذبة ويتركون العمل الإقتصادى فيتجرعون
الفاقة والاملاق دائما ويلازمهم ذلك ، (١) . .

(١) ص ٣٦ من كتاب الفلاحة والمفلوكون .

وموقفنا : أن ما ذهب إليه الدلجى غير صحيح : ولا يستحق الوقوف عنده إلا بقدر ما تناقشه عليه ذلك :

أولاً : لأن العلماء من أقدر الناس بحمد الله على العمل بل ومن أعرضهم بالله وبهدى رسوله ﷺ ولقد قرأ العلماء جميعاً كتاب الله وما بحث عليه من العمل الإقتصادى وما فى الإنفاق من خير فى جميع وجوهه ولا إنفاق بجميع ضروبة إلا إذا توفر المال والعلماء أصرص الناس على تنفيذ موجب قوله تعالى : من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة « (١) فلماذا لا يستجيب للعلماء وهم فى جملة من أهل الإيثارة لا أهل الاستشارة والعلماء تدبروا قول الرسول ﷺ (أفضل الكسب كل بيع مبرور وعمل الرجل بيده وأن نبى الله داود كان يعمل) (٢) .

وغير ذلك من الأحاديث الشريفة ولهذا انجسوا من واقع ما آمنوا به واعتقدوه إلى العمل بأيديهم فمنهم من جاهد فى سبيل الله وكسب الغنيمتين الدينية والدنيوية ذلك لأن الرسول عليه السلام قال : (جعل رزقى تحت ظل رحى) (٣) . وقال العلماء بعد ذلك أن أفضل المكاسب على الإطلاق ما كان من الجهاد فى سبيل الله لأنه هو مكسب رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) . .

ثانياً : من أجل هذا نجد الكتب المترجمة لهم رحمهم الله تهج بنسبتهم

(١) سورة البقرة : الآية ٢٤٥ .

(٢) تقدم تخرجه .

(٣) المسند ٣ / ٥٠٠ - ٩٢ .

(٤) المجموع شرح المذهب للنووى ٩ / ٥٨ - مطبعة الإمام القادرة - (د ت) .

إلى الخرف التي يعملونها ولن يجسدوا في ذلك ضيراً فهي مكسب حلال أرادوا به أن يبتعدوا عن الأموال والمكاسب التي توقعهم في شبه المال الحرام . . فهذا عالم ينسب إلى بيع القرض والجلود والدهن والسمن والبن والبرذ وتلك القائمة الطويلة التي لو نظر لها الباحث لوجد أن العلماء لم يتركوا حرفة إلا وطرقوها وذلك حسبهم منهم لله وحرصاً على أن يعملوا بأيديهم حتى يكون كسبهم أكثر حلاً . .

ثالثاً : ثم من أين الدلجى هذا الوصف للعلماء بأنهم انصرفوا عن التجارة ولن أعمال إحصائية لعدد التجار ولكن حسبي أن أشير إلى خيار الخلق من العلماء وأولهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وصحابة رسول الله ﷺ في جملتهم وخاصة في المدينة النبوية أمامه يعملون في التجارة كعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وهؤلاء من جلة العلماء وخيارهم ثم انتقل إلى العصور الأخرى وانظر إلى الإمام الزاهد عبد الله بن المبارك والإمام الشافعي بن سعد ثم الإمام مالك ثم الإمام — أبو حنيفة — ثم الإمام البخاري صاحب الصحيح وابن الجصاص الذي كان من أثرى العلماء .

وحتى كتابة هذه السطور لا يزال العلماء بحمد الله يزاولون النشاط الإقتصادي الطبيعي إن في متجرهم وإن في حرفهم ولك أن تسعد كثيراً بذكر قصة الإمام سفيان الثوري رحمه الله حيث سئل : لماذا تشتغل في التجارة قال : إن هذه اللعاعة تقينا وتحميننا من تمنيل الملوك بنا « فكيف جاز للدلجى رحمه الله وعفا عنه أن يصنف العلماء بهذه الصفات ويبعدهم عن واقع الحياة الإقتصادية والعجب أن جميع ما شغب به الدلجى حول العلماء لم يكن فقيه موقفاً وسيرى القارىء ذلك بمشيئة الله تعالى .

ثم قال إن سلوكيات التجارة غير مرضية فإن الإسلام طهر مافي التجارة من غش وخداع واحتكار وعلنا المتمسكون عندما يتاجرون فهم من أطهر الناس وأحرصهم على أن يتعاملوا المعاملة التي تناسب دخول المتقين لله في هذا المسلك فانظر إلى الإمام البخارى حين كان تاجراً جاء أحد المشترين فاشترى منه بضاعة ولم يدفع شيئاً سوى أنه نوى شراءها وتأخر إلى الغد فزادت التجارة التي اشتراها هذا التاجر مثلها في الغد فسلم البخارى الربح للتاجر بعد أن باعها ولم يأخذ من الربح شيئاً فهذه هي التقوى في التجارة وأبو حنيفة كان يبين للناس المشترين منه عيوب السلعة حسب توجيهات الإسلام وغيرهما .

وكنا نود أن العلماء كثروا في سوق إذ لكان السوق سوق المتقين. ولخلى من العابثين المتربصين والخذعة . .

الوصف الثاني :

قوله : أن العلماء يتوقعون الخير من الناس وأنهم سيقدرونهم ويعرفون فضلهم ولكن الناس عنهم لاهون (١) :

المناقشة :

أما أن العلماء يتوقعون الخير من الناس ولهذا ينتظرون منهم لقمة العيش ففي الواقع أن هذا سبب واضح للعلماء وتعمير لهم بما ليس فيهم إذ أن الدلجى الآن بهذا الكلام يرمى العلماء — وقد حماهم الله — بأنهم يستغلون علمهم واحترام الناس لهم للصعيد المداى ولنسنا مع الدلجى في أن

الناس لاهون عن العلماء إذ أن الناس يحبون العلماء ويرغبون إليهم لا عنهم ويسألون عن ما يحتاجون إليه من أمور دينهم وأعتقد أن الناس لم يدر بخلد هم ما دار بخلد الدجى من أن العلماء ينتظرون الأجر المادى على ما يبذلونه وعلى أنهم أصبحوا علماء سبحانه الله العظيم ما هذا التفكير المتدنى للدجى وإذا وصلت به الحال إلى رعى العلماء بهذا المنة قصه وأنها سبب لفقرهم فمن هو العالم الذى جلس بيته وانتظر من الناس أن يهدوا الهدايا له ويصرفوا عليه دون أن يكون له سبب إلا أنه طالب علم ؟ . . ومن هم الناس الذين طهوا عن العلماء ولم يحترمواهم . . . ؟ وهذا التوقع من الدجى توقع فى غير محله - وكان الأولى به وهو من العلماء - أن يترفع بالعلماء وينزلهم منزلتهم للتي أنزلهم الله وحفظ ذلك لهم الناس . .

الوصف الثالث :

قوله : أن العلماء يوغلون فى الافتراضات والاحتمالات البعيدة (١) :

مناقشة الدجى :

وهذه صفة ذميمة ثالثة وصف بها العلماء من أنهم خياليون ويفترضون الافتراضات البعيدة ويحلون ويتمنون كما وصفهم قبل ذلك . . ونحن نسأل الدجى هل وجد فى عهده نماذج لؤلاء العلماء ؟ هل استقرأ الدجى سلوك العلماء وتبع حتى ينتهى إلى هذه النتيجة ؟ ثم ما بال العلماء وحدهم هم الذين يفترضون ويحتملون الاحتمالات البعيدة ؟ أليسوا من جنس الناس يعرفون كيف يدبرون أمور حياتهم ؟ أم لأن العلماء بلغوا درجة من

(١) ص ٣٦ من الكتاب .

العلم تؤهلهم لأن يدخلون السوق التجارى بعد أن فهموا الحلال والحرام؟
وما الذى يدعو العلماء أن يوغلوا فى الافتراضات وهم بحمد الله واجدون
كل خير أمامهم من أمور النشاط الإقتصادى الطبيعى . .

الوصف الرابع :

قوله : إن بعض العلماء لا يحافظ على الفضائل ويمارس الرذائل فيبتعد
الناس عنهم ويلزمونهم بالانحراف (١) :

مناقشة الدلجى :

وهذه صفة وإن كانت ذميمة من بعض العلماء إلا أن هذا يقلل من
شأن المسالك الرذيلة فى وضعه الاجتماعى لكنه لا يعنى بالضرورة أنه سبب
من أسباب الفلاكة أى ليس سببا لتردى سلوكه المادى . . .

ولهذا قال الشاعر :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا
حياه بالاطماع حتى تهيم (٢)

(١) ص ٣٦ من الكتاب

(٢) هو القاضى عبد العزيز الجرجاني .

الوصف الخامس :

قوله : أن رواج العلماء لعلمهم كما أن رواج أرباب الحرف لحرفهم ...

العلم يغاير بقية السلع والبضائع فلا يمكن تحصيله إلا بعد فترات طويلة من العمر كما أنه شيء غير محسوس وقابل للجهود والتصنيع فكيف يتأتى معه الرواج والغنى^(١) .

تفسير ومناقشة :

نحن مع الدلجى أن العلم يحتاج إلى وقت طويل حتى يتيسر تحصيله ومن ثم يوصف بأنه عالم وهذا الوقت الطويل يضيق الفرصة على طالب العلم في المال والتوفير التام له وليس كذلك الصنائع أو البضائع فإنها تدر عليه دخلا يوميا منذ معاناته لها . .

وإن كان لنا تعليق على ذلك فإنه : أن طالب العلم أثناء طلبه للعلم يتمكن أيضاً من السعى في الأرض وطلب الرزق والحاجة الماسة إلى ذلك ولترفع العلماء كغيرهم عن أن يسألوا الناس أو يسترزقوا عن طريق آخر سوى الطريق والسكسب المشروع . .

(١) ص ٤٧ من السكتاب .

ومسألة أخرى أثارها الدلجى فى غاية الأهمية هى :

قلة الطلب على العلم :

تفسير ومناقشة :

ذكر الدلجى سببا هاما دقيقا من الناحية الاقتصادية وهو قلة الطلب على العلم بمعنى أن الإنسان يتوقف دخله على ما لديه من أموال من جهة على مقدار تكسبه بعماله من جهة أخرى . . وكلما كان هناك حاجة وطلب على هذا النوع من المال وهذا النوع من العمل كلما أثمر ونما . . ولزهد الناس فى خدمة القضاء والفتوى والتدريس ولقلة احتياجهم لهذه الخدمات فإن أصحابها لا تعظم ثروتهم ويعنى ذلك أن السلعة أو الخبرة لى تروج ويرفع سعرها لا بد من أن تمثل حاجة قوية لدى الأفراد أى أن يكون لها سوق متسع وهذا كلام صحيح تماما من الناحية الاقتصادية لكن من الناحية المذهبية أو الشرعية يحتاج إلى نقاش على النحو التالى :

١ - علاقة الفقر والغنى بالعلماء « فى نظرو الدلجى » :

لا يعنى ما نعنيناه وما ناقشنا به الدلجى حول وصفه العلماء بالفقر. فالعلماء فقراء فى أغلبهم ولكن الذى ننفيه ولا يتفق مع الدلجى هو ما ألقى به العلماء من هذه الصفات أو هو ما استلزمته هذه الصفات على اعتبار أن الدلجى ذهب إلى أن أغلب من يلقى به الفقر هم العلماء . .

ولم يشأ الدلجى أن يقف عند هذا الحد فى تناوله لمسألة العلم والعلماء

وعلاقتهم بالغنى والفقر فقد قدم دراسة جيدة تكشف عن العلاقة التاريخية بين العلم والغنى والفقر على مر العصور منذ بداية الدعوة الإسلامية وحتى عهده . .

ومن خلال هذه الدراسة استطاع أن يبرهن على صدق نظريته من أن العلم والمعرفة شأنهما شأن بقية السلع والخدمات تروج وتتفق كلما اشتدت الحاجة والطلب عليهما وتنبور وتكسد بقلّة الطلب عليهما . .

ففي العصور الأولى كانت حاجة الناس إلى العلماء أشد من حاجتهم إلى الحكمة من الباعة والضنّاع وكان الأمراء والحكام هم أكثر الناس حاجة إلى العلماء ومن ثم أجزلوا لهم العطايا والمكافآت ، وفي ضوء ذلك انتشرت العلوم ودونت المعارف وألفت الكتب في العديد من الفروع المختلفة من المعرفة . وترجع حاجة الحكام إلى العلماء لما هم متمسكون به من الشريعة والشريعة تشمل علوما عديدة خادمة لها . . .

ثم بعد ذلك فتر الحماض للشريعة وبدأ الحكام يبتعدون عنها رويدا ورويدا ويستغنون بأفكارهم وعقولهم وما يرونه من سياسات الأمر الذي معه قلل شأن العلوم المختلفة ولم يبق من العلم سوى رسومه ومعاينه ومبانيه . . واختفى المعنى وحل محله المظهر (١) . .

مناقشة :

هذا الذي سبقته الآن ملخص بتصريف النظرية الدلجى حول فلاكة العلماء وفقرهم وأن سببها قلة الطلب عليهم فهل هذا صحيح ؟

في هذا المقام لا يفوتنا أن نشير بعض المناقشات إذ يفهم من كلام الدلجى أن العامل الاقتصادى أو المادى أو المالى لعب دورا كبيرا في نشر العلم والمعرفة في ربوع الأمة الإسلامية بل إنه كما — حسب كلام الدلجى — أحد الحوافز الرئيسية الكبرى على ذلك . .

ولا شك أن القول بذلك يوقعنا في حرج كبير نجاء علمائنا الأفاضل لأننا نعلم يقينا أن الكثير منهم يحمد الله إنما ألف ما ألف ودون ما دون حسبة لله تعالى وليس في ذهنه من قريب أو بعيد جوائز الحكام ومكافآتهم وحيازة الأموال ، وإنما كان همهم الأكبر الحفاظ على الشريعة والعمل على نشرها في الآفاق . .

ومع ذلك فإن النواحي السياسية ومواقف الحكام من تقدير العلم والعلماء ولا يمكن إهمالها في النهضة العلمية . . . فإن تشجيع بعض المذاهب الفقهية مثلا كالمذهب الحنفى في عصر الرشيد في الشرق والمذهب المالكي في المغرب جعل أكثر طلبة العلم يتجهون إلى التذهب بهذا المذهب ومن ثم كثر التأليف في الفقه المذهبي ومع ذلك فالانحياز إلى المذهب شىء واتحاه العلماء لى التكسب من وراء اتباع المذهب شىء آخر . .

وما ذكره الدلجى من حالات لبعض لبعض طلبة العلم فإنها حالات فردية لا ترقى إلى أن تكون نموذجا لطلبة العلم والعلماء في ورعهم وزهدهم على اختلاف معارفهم وإن قراءة متأنية لكتب التراجم لتبين فضل العلماء وما هم عليه من ورع وزهد ليجاف عن الدنيا ولك أن تقرأ سطورا من حياة الخليل ابن أحمد أو غيره من العلماء الأفاضل لتجد تأييدا ما نقول . .

والذى نخشاه أن يكون ما قاله الدلجى يتخذ سلما وطريقا للمبغضين

للاسلام وأهله من أولئك النفر الذين اهتموا بالاسلام من الغرب أو الشرق وسموا أنفسهم بالمستشرقين فكتبوا تاريخ العلماء المسلمين لا حبا لهم بل حبا للدرس على الاسلام والطعن على العلماء من خلال بعض التصرفات الشاذة التي لاتصل إلى مرتبة مجتمع العلماء لأنها حالات فردية وسلوك شخصي خاص لهذا العالم فلا يجب أن يحكم على العلماء من خلال شخص أو أشخاص . . . وخشيتنا أكثر أن يصدق أبناء الاسلام والمسلمين وخاصة منهم من يرضعون ومنهم ما يقوله أولئك الأفاكون فاسدى الطوية من الغرب والشرق والكافر فيصبح علماؤنا ألهية لأولئك الفسقة نتيجة حالات شاذة . . . ولقد قال بعض من لا يستحي من الله في الصحابة ما قال حول أن من أهم أهداف جهادهم هو العامل المادى نقلا عن أساتذته الغربيين^(١) . . . وليس لنا تعليق على نزاهة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا على العلماء العدول الذين حملوا العلم من بعدهم وفيهم القرون الثلاثة الخسيرة الأولى شهد لهم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بالخيرية . . .

٢ — هل يتخذ العلم حرفة وأداة للتكسب :

والواقع أن العلم وأخذ الأجر عليه لا بأس به إن شاء الله وقد قال عليه السلام (إن أحق ما أخذتم عليه أجرأ كتاب الله)^(١) . وقد أخذ الصحابة الأجرة في الرقية بكتاب الله وأقره المصطفى عليه السلام على ذلك بل وطلب منهم أن يعطوه من اللحم الذى أخذوه من المريض والمدرس

(١) هو المؤرخ المصرى المسلم الدكتور أحمد الشامى فى كتابه « الخلفاء الراشدين » .

(١) تقدم تفريجه .

وطالب العلم كغيره يبيع منفقته ولكنه لا يتخذها سلعة يتاجر بها
 ويزايد وينقص من أجلها ، ولا شك أن القضاة من طلبة العلم ومع ذلك
 يأخذون رزقا على ولايتهم القضاء وكذلك المدرسون فإنهم قد قصروا
 منفعتهم على الجلوس للعلم وتفرغوا له عن أى عمل آخر كما وافق الصحابة
 على أن يعطوا أبا بكر الصديق وضى الله عنهم جميعا رزقا من بيت المال
 في مقابل منفعته وولايته على المسلمين وهو أفقه الناس وأعلمهم . .

وليس في ذلك حرج إن شاء الله ولكنه ينبغي أن يصون العالم
 نفسه وعلمه ويحججه محل الاحترام وقد ثبت تولى العلماء لوظائف
 كثيرة كآبى يوسف القاضى رحمه الله الذى تولى وظيفة كبير القضاة في
 عهد هارون الرشيد وكذلك غيره من العلماء وإلى الآن لا يزال العلماء
 يتولون مناصب قيادية في الدولة ويتكسبون بعلمهم ما يكفون به
 وجوهرهم من السؤال للناس ويغنيهم عن الآخرين فلهم حق في بيت المال
 كغيرهم وهم لا يأخذونه دون مقابل حيث يقدمون منفعة للمسلمين وقل
 مثل هذا في من يتولى أى عمل من العلماء تدريسا أو قضاء أو حاسبة
 أو من يؤلف مؤلفاته أو يكتب المصحف أو نحو ذلك ويديعها فهذا أمر
 قرره العلماء ولم يروا به بأسا . .

وإننا نوافق الدجى على أن نسبة الفقر في العلماء أكثر من
 غيرهم ولهذا حين اختار التراجم منهم فقد أحسن إلا أنه مع ذلك
 لا يوافق على الأسباب التى ذكرها كالزهد وشغلهم بالعلم نفسه فإن
 العلماء ليسوا كلهم من الزهاد فالزهد في الحقيقة ميل وسلوك معين يسلكه

الصالحون وعلى رأسهم العلماء فهو ثقل من الدنيا ودروع لا بغضا
للمال ولا رغبة عنه ولكنه الأخذ بالقليل الأقل حتى يتصفوا نفوسهم
وتتفرغ للعلم وقد أثر عن بعضهم أنه قال « لو كلفني أهلي بشراء بصلة
ما حفظت من العلم شيئا » ، فالتفرغ للعلم التفرغ الكامل والزهد جعلهم
في مصاف المفلوكين اختيارا لا اضطرارا وهذا هو المهم في الأمر فإن
أغلب الفقراء فقرهم عن قل رغم طلبهم فهذا ما قسم الله لهم ..

سبق علمي

« الوصايا » « التوصيات »

ويختتم الدلجى كتابه هذا بالتوصيات التي أراد أن تكون نصيحة جيدة للمفلوكين وخرج بها على هيئة توصيات كما تفعل المؤلفات الحديثة والأكاديمية منها بصفة خاصة سابقاً بها منذ مئات القرون الباسئين . .

وأشير هنا إلى أهم الوصايا أو التوصيات كما نسميها في العصر الحاضر وخاصة منها ما يتعلق بالناحية الاقتصادية .

قال الدلجى :

بعد أن قدم مقدمة طيبة لوصاياهم من وجوب وملاحظة المفلوك الأخذ بهذه الوصايا وقد وضعت العناوين الجانبية من عندى استكمالاً للفائدة ولقفاً المقارىء وتنبهها له :

(أ) عزاء ومواساة :

اعلم بأن السمكالات النفسانية لذتها تزيد على اللذات الجسمانية^(١) .

مناقشة الدلجى :

ولو أن الدلجى وقف عند هذه الموعظة والوصية الجميلة لما احتجنا إلى مناقشة حورها ولا ندرى هل يسم الفقراء بذلك فإن فراغ الجيب وصفر

(١) س ١٤٢ من الكتاب .

اليد مشكلة تشغل باله ولو تعزى بطلب العلم فإنه دائماً مشغول البال مهوم لا يدري كيف يدبر أموره المعاشية وخاصة إذا كان يعول أسرة . . . ونعود إلى الدلجى لشرى تناقضه فبعد عدة توصيات يقول للفقير (اعلم بأن جزءاً واحداً من المال خير من المال خير من أجزاء كثيرة من الكمالات النفسية^(١)) . . . ويقول مرة أخرى (لله در من سمى المال كمال الكمالات^(٢)) . . . أليس هذا تناقض فكيف يطلب من الفقير التسامى والعزاء بالكمالات النفسية ثم يقال له مرة أخرى (إن الكمالات النفسية . . . ثم بعد ذلك التأكيد على صدق المقولة « إن المال هو كمال الكمالات . . . »

ونحن لا نتفق مع الدلجى فى أن المال خير من الكمالات النفسية لأن المال خادم وقنطرة ومعبّر للوصول إلى المجال والكمال النفسى وليته توقف عند وصيته الأولى لكان للفلوك تسلية وعزاء . . . ولكن هل نعتذر للدلجى بأنه بما يهدف أن هذه النظرة نظرة المجتمع فى غالبية مهمما كانت نظرة ذات مبالغة وظلم للجمال والكمال النفسى . . .

(ب) عزاء آخر :

(إن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب وإن الدين لا يعطيه إلا من يحب) وهذا جزء من حديث نبوى شريف أورده الدلجى كاملاً مشيراً إلى الأنبياء لم يورثوا سوى العلم فلم يورثوا الدنانير ولا الدراهم . . . (ويقول هاشتغل بالعلم فليس فوق العلم لذة وهو شاغلك عن كل شيء)^(٣) ، (ثم سح الناس بأخلاقك ومعارفك إذا لم تسعهم بمالك ومعروفك)^(٤) ، وهو أيضاً

(١) ص ١٤٣ من الكتاب .

(٢) ص ١٤٣ من الكتاب .

(٣) ص ١٤٣ من الكتاب .

(٤) ص ١٤٣ من الكتاب .

يشير إلى حديث آخر يقول عليه السلام (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن سعوهم بأخلاقكم) (١) . .

والدلي هنا يعسر على الفقر ملازما للعلم والعلم وقد بينا خطأ هذه النظرة والاتجاه فإن الفقر والغنى ظاهرتان لا يختص بهما أحد عن أحد بل إن العلماء أكثر تعرضا للغنى من غيرهم لما يلاقون من فرص سانحة لهم ولن تقتصر على علماء الشرع فنحن نشير إلى أي علم ديني أو دنيوي حتى يدخل في ذلك كل خبير فهم أكثر الناس غنى في كل المجتمعات وعلى مر العصور وما فلاكتهم الواردة عليهم إلا مجرد اختيار منهم ورغبة فيما عند الله تعالى فهذا اشتغل الفقير أو المملوك بالعلم فإنه لا شك واحد الغنى والخير والخروج من الضائقة المادية . .

(ج) الاستهانة بالدنيا :

يقول الدلي (كن شديد الاستهانة بالدنيا ضرا ونفعا عطاء ومنعاً حصولاً وفواتاً) (٢) ، ونحن مع الدلي في هذه النظرة والوصية الثمينة فإن قليل المال إن لم يشغل خاطره كثيراً بالتفكير فإنه سرعان ما يبحث عن عمل ومورد أما إن اشتغل خاطره بالتفكير وتشوش عاياه الأمر فقد يتحول إلى حقد على المجتمع وتمنى زوال النعمة على الآخرين دون أن يستخدم نفسه بدنان واحد بل قد يصل إلى اليأس وإتهام نفسه بالعجز فمن لم يستعبده الدينار والدرهم فلن يعبأ كثيراً بقضية الغنى والفقر بل يكون شخصاً عادياً إن حصل له المال أنفقته في وجهه وإن لم يجده لم يتحسر على ذلك

(١) أخرجه : البزار وأبو نعيم في الحلية والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان : انظر :

الفتح الكبير ج ١ / ٤٣٣ .

(٢) ص ١٤٣ من الكتاب .

فبهذا يريخ نفسه من عناء موازنة نفسه بفلان أو بفلان من الناس ومن النظر إلى مما في جيوب الآخرين « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » (١) . .

(د) أنزل حاجتك بالله :

وهذه من أئمن الوصايا للفقير والغنى على حد سواء فالتناس جميعا فقراء إلى الله محتاجون إليه في كل لحظة فإن نزل بالمسلم ضائقة فإنه ينزلها بالله وسرعان ما تفرج يقول الدجلى (أكثر من دعاء الله وأنزل حاجتك به يقول صلى الله عليه وسلم) انظروا بياذا الجلال والاكرام (٢) ويقول جل شأنه « قل ما يعجز بكم ربى لولا دعاؤكم » (٣) . . ثم يقول (إياك والتحويل على واحد بخصوصى من البشر والغاء الشراشر عليه فإن من أبى شراشره على غير الله وكله وما اختاره لنفسه) (٤) والله جل شأنه يقول « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم لمن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » (٥) . .

ومع ذلك فإن إعلام المسلمين بحاجة الفقير أمر لازم خاصة إذا لم يعلموا بحاله وفعل السبب جائز شرعا فالفقير إذا طلب حقه من الزكاة لدين نزل به أو دم موجه أو فقر مدقع كما ورد في الحديث الذى رواه قبيصة بن المخارق « يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لثلاثة » . . . (٦) . .

(١) سورة النساء : آية ٥٤ .

(٢) المسند للإمام محمد ١٧٧/٤ .

(٣) سورة الفرقان : آية ١٧ .

(٤) من ١٤٣ من الكتاب .

(٥) سورة غافر : آية ٦٠ .

(٦) مسلم ٧٢٢/٢ - أبو داود ٨٨/٥ - النسائي ٨٨/٥ - مسند أحمد ٤٧٧/٣ .

(هـ) لا تيأس من روح الله:

وصية نفيسة للفقير (لأنه لا ييأس من روح الله القوم الكافرون)^(١)
فإذا كان الله إبتلاك بنقص في المال فلاختيارك وإمتحانك هل تصبر
وترضى وتسلم بما قسمه الله لك أو تيأس وتقنط وتخرج بهذا إلى مالا يليق
بالمسلم وهو معارضة حكم الله تعالى (فمن رضى فله الرضا ومن سخط فعليه
السخط) . .

ولا شك أن اليأس يقتل المواهب يكتبت الحافز ويجعل الفقير مجرد
إنسان كم مهمل لا يستغاد منه تلعب به الوسوس وتبعث به الأوهام
وتناغيه الأمانى السكاذبة والأحلام الفارغة وليعلم الفقير أن الله الذى
أعطى الغنى المال قادر على أن يمنحه أكثر منه ولمكن كان عليه أن يصبر
وينتظر ولا يجعل اليأس له مصاقبا ومصاحبا ورفيقا فإنه لن يحصل على
شئ من المال إذا كان الله لم يكتب له ولن يرد دأ إذا كان الله قد
كتبه له

فإن اليأس والحالة هذه وصول إلى طريق مسدود وسلبية تامة لا تفيد
الفقير بشئ سواى التحسر ولن يغير تحسره من الأمر شيئا . .

والبدىـل :

- ١ - لا تسكن كلا بل متحركا كإيسا .
- ٢ - رقع عجزك وفلاكتك بحيلتك ومصابرتك .
- ٣ - عليك الوثوب عند الفرصة .

(١) سورة يوسف : آية ٨٧ .

٤ — ولا تيأس من روح الله^(١) . .

أربع وصايا للمفلوك تجعل منه رجلا نافعا في المجتمع بعد أن ينفسح نفسه والساعى دائما لن يخيب الله سعيه واثن فشل في الأولى فلن يفشل في الثانية واهتيال الفرصة أمر ضرورى ومطلب يذيف أن لا يضيع في ثنايا تشاؤم الفقير ويأسه فكم فرصة يضيعها الفقير وغيره ولا تعود أو لا يعود مثلها . .

وليس من شأن الفقير أن يلوم الآخرين وهو لا يفعل شيئا فالسما لا تمطر ذهبها ولا فضة ، ولن ينزل المن من السماء على العاطلين فلا بد من الحركة والكياسة في الحركة أيضا فليست كل حركة ناجحة فالتحرك الأهوج الأحق لا يفيد شيئا بل لابد من تحرك مدروس واضح يستشعر فيه ذوا الخبرة والكياسة والسابقون للفقير . . . وعموما ففي الحركة بركة « وما التوفيق إلا بيد الله » فعليه التوكل

الفهارس

- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الأحاديث
- فهرس المراجع
- فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

مرتبة حسب ورودها في البحث

الآية	رقمها	المسورة	الصفحة
— أنطعمهم من لو يشاء الله أطعمه	٤٧	يس	٤٨٠، ٣٧٠، ٣٥
— وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين	٢٣	المائدة	٥١
— ومن يتوكل على الله فهو حسبه	٣	الطلاق	٥١
— فإذا عزمت فتوكل على الله	١٥٩	آل عمران	٥٣
— خذوا حذركم	٧١	النساء	٦٠، ٥٣
— وهزى إليي بجزع النخلة	٢٥	مريم	٥٣
— وتزودوا فإن خير الزاد التقوى	١٩٧	البقرة	٥٣
— وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة	٦٠	الأنفال	٦٠
— فأسرى بعبادى ليلاً . .	٢٣	الدخان	٦٠
— ونزل من القرآن ما هو شفاء	٨٢	الإسراء	٦١
— قل كل من عند الله	٧٨	النساء	٦٦
— إنما أوتيتهم على علم عندي	٧٨	القصص	٦٦، ٣٧
— وكانوا فيه من الزاهدين	٢٠	يوسف	٦٩
— كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم	٧	الحشر	٨٣، ٧٧
— إن أكرمكم عند الله أتقاكم	١٣	الحجرات	٧٧
— عبس وتولى	٣٠١	عبس	٧٧

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
— ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ٥٣	٥٣	الأنعام	٧٨
— أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ٥٤	٥٤	النساء	١٤٥، ٨٤، ٧٨
— ودوا لو تكفروا كما كفروا ١١٨	١١٨	آل عمران	٧٨
— أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ٣٩	٣٩	الحج	٧٩
— لإيلاف قريش لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ٢٠١	٢٠١	قريش	١٠٨
— يسط الرزق لمن يشاء ويقدر ١٧	١٧	الإسراء	٣٣٦
— فأما الزبد فيذهب جفاء ١٧	١٧	الزهد	٨٣
— والنجم والشجر يسجدان ٦	٦	الرحمن	٨٩
— الشيطان يعدكم الفقر ٢٦٨	٢٦٨	البقرة	٩٧
— من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه ٢٤٥	٢٤٥	البقرة	١٣٠
— يحق الله الربا ويربي الصدقات ٢٧٦	٢٧٦	البقرة	١٢٠
— قال ما يعبدكم ربى لولا دعائكم ٧٧	٧٧	الفرقان	١٤٦
— قال ربكم ادعوا لي أستجب لكم ٦٠	٦٠	غافر	١٤٦
— قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ١٠١٩	١٠١٩	فصلت	
— ولويسط الله الرزق لعباده ليهوأنى الأرض ٢٧	٢٧	الشورى	
— ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ١٥٥	١٥٥	البقرة	١٢٤
— وآتاكم من كل ما سألتموه وأن تعدوا نعم الله لا تحصوها ٣٤	٣٤	إبراهيم	

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
— وما أوتيتم من العلم إلا قليلا	٨٥	إبراهيم	.
— وآتوهم من مال الله الذي آتاكم	٣٣	النور	٣٧
— وأنفقوا مما رزقناكم . .	١٠	المنافقون	٣٨
— وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين	٣٩	سبا	٣٨
— الله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم	٧١	النحل	٤٠
— فأما من أعطى واتقى وصمدق بالحسنى	١٠٩، ٨	الليل	٤٨
— وفي السماء رزقكم وما توعدون	٢٢	الذاريات	١٢١
— وأنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرين	٧٨	يوسف	١٤٨
— ولا تزر وازرة وزر أخرى	١٦٤	الأنعام	٣٨
— كل امرئ بما كسب رهين	٣١	الطور	٣٨
— يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله	١٥	فاطر	٣٩
— وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام	٨	الأنبياء	٣٩
— أن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله	٣٢	النور	٣٩
— أ هم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون . .	٣٣	الزخرف	٤١

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
— وهو الذى جعلكم خلائف للارض ورفع بعضكم ..	١٦٥	الانعام	٤١
— ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض .	٩٦	الاعراف	١٢١
— ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات .	١٥٥	البقرة	١٢٤

فهرس الأحاديث

مرتبة حسب ورودها في البحث

الصفحة	الحديث	عدد
٣٦	١ - كان رسول الله ﷺ يسأل الله الغنى والتقى	
٣٦	٢ - ما نفعنى مال مثل ما نفعنى مال أبوبكر	
٣٦	٣ - اللهم أكثر ماله وولده ، قاله لأنس	
٤٩	٤ - فُجِعَ آدم وموسى	
٥٠	٥ - اعملوا فكل ميسر لما خلق له	
٥٤	٦ - اعقلها وتوكل	
٥٤	٧ - ليس المغفر حال دخوله مكة	
٥٤	٨ - كان النبي ﷺ إذا أراد السفر لغزوة وروى بغيرها .	
٥٧ ، ٥٤	٩ - إني لأرى الشاب يعجبني فأقول	
٥٥ ، ٥٤	١٠ - ما أكل أحد طعام خير من أن يأكل من عمل يده	
	١١ - يدخل الجنة سبعون ألف بغير حساب ولا عذاب	
٦١	١٢ - إن أحق ما أخذتم عليه أجرأ كتاب الله	
٦٣	١٣ - كان عليه السلام يدخر قوت عياله سنة	
٦١	١٤ - أقر عليه السلام السكى والرقى من القرآن	
٥٥	١٥ - إن كان خرج يسعى على إعفاف نفسه . . . الحديث	
٨٩	١٦ - هل في بيتك شيء قال حاس وقعب . . .	

الصفحة	الحديث	عدد
٥٥	١٧ - من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له . .	
٥٦	١٨ - لا تفعل هذا فإن مقام أحدكم في سبيل الله .	
٥٦	١٩ - الساعى على الأرملة والمسكين . . .	
٦٤ ، ٥٦	٢٠ - خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى	
٥٧	٢١ - فأقول هل له حرفة . . (أثر عن عمر بن الخطاب) . .	
٥٧	٢٢ - اطلب الرزق فإن السماء لا تمطر ذهب ولا فضة » أثر عن عمر «	
٥٧	٢٣ - التوكل أن تبذر البذرة في الأرض ثم تتوكل . . » أثر عن عمر «	
٥٧	٢٤ - هؤلاء المتأكلون » أثر عن عمر « . .	
	٢٥ - ولكن قل قدر الله وما شاء فعل	
٦٩	٢٦ - الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال . . . الحديث .	
٦٩	٢٧ - ازهد في الدنيا يحبك الله .	
	٢٨ - يامعشر الفقراء اعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بشواب ربكم » أثر ،	
٧٠		
٧٨	٢٩ - لاحسد إلا في اثنتين الحديث .	
٩٧	٣٠ - كاد الفقر أن يكون كفراً .	
	٣١ - إنما ترزقون وتنصرون لضعفائكم .	
٨٢	٣٢ - ما تقولون في مثل هذا .	
٨٣	٣٣ - المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره الحديث .	
٨٣	٣٤ - أخوانكم خولكم أطعموهم مما تطعمون	
٨٩	٣٥ - أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر الحديث .	

الصفحة	الحديث	عدد
٨٩	٣٦ - كذب المنجمون ولو صدقوا « أثر هن عمر ،	
٩٠	٣٧ - نهى أن يبيع حاصر لباد .	
٩٠	٣٨ - يا معشر التجار ألا إن التجار هم الفجار إلا من صدق وبر .	
٩٢	٣٩ - السفر قطعة من العذاب .	
٩٦	٤٠ - اليد العليا خير من اليد السفلى	
٩٦	٤١ - إذا أعطيتهم فاعنوا ..	
٩٧	٤٢ - لو كان الفقير رجلاً لقتلته « أثر عن علي ابن أبي طالب ،	
٩٧	٤٣ - سرقت غلبان حاطب .. (قصة في عهد عمر)	
٩٨	٤٤ - خذوا العطاء ما دام عطاء ..	
٩٨	٤٥ - إذا استدان الرجل حدث فكذب ووعد فأخلف .	
٩٨	٤٦ - لا يقضى القاضى وهو غضبان .	
٩٨	٤٧ - عجبت لمن لا يجد القوت ألا يخرج شاهراً سيفه « أثر عن أبي ذر ،	
١٣٠	٤٨ - جعل رزقى تحت ظل رحى .	
	٤٩ - أقر عليه السلام أخذ الأجرة على كتاب الله « حديث الرقية	
٦١	بأم الكتاب » ..	
	٥٠ - خير القرون قرنى .	
١٤٥	٥١ - إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن سعوهم فى أرزاقكم ..	
١٤٦	٥٢ - ألقوا بياذا الجلال والإكرام ..	
١٤٦	٥٣ - يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لثلاثة ... الحديث .	

الصفحة	الحديث	عدد
	٥٤ - إن لله في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها . . الحديث .	
٣٩	٥٥ - نعم المال الصالح للرجل الصالح	
٥٧	٥٦ - إنما خلقت الأيدي لتعمل . د أثر عن عمر ،	
٦١	٥٧ - إنهم لا يسترقون ولا يكتزون وعلى ربهم يتوكلون	
٦٣	٥٨ - الثلث والثلث كثير	
٩٧	٥٩ - اللهم أعوذ بك من الكفر والفقر	

— ١٥٩ —

فهرس المراجع (مرتبة على حروف المعجم)

* القرآن الكريم .

- ١ — الإسلام والاقتصاد / د. عبد الهادي النجار / سلسلة عالم المعرفة
بالمكويت عام ١٩٨٥ م .
- ٢ — الإسلام والتنمية الاقتصادية / طبع دار الفكرى العربى — طبعه
أولى سنة ١٩٧٩ م — القاهرة — للدكتور شوقى أحمد دنيا .
- ٣ — الاكتساب فى الررق المستطاب / للامام محمد بن الحسن الشيبانى —
تحقيق د. سهيل زكار — مكتبة الثقافة الإسلامية — ١٩٣٨ م
دمشق .
- ٤ — تاريخ بغداد — للخطيب البغدادى — القاهرة — مكتبة الخانجى
— سنة ١٩٧٩ م .
- ٥ — التراتيب الإدارية — لعبد الحى السكناى — بيروت — محمد
أمين — (د . ت) .
- ٦ — تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج / لابن الملقن / تحقيق ودراسة عبد الله
ابن سعاف اللحىانى — دار حراء للنشر والتوزيع بمكة المكرمة
— طبعة أولى عام ١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦ م .
- ٧ — التلخيص الحبير فى تفریح أحاديث الرافعى الكبير / لابن حجر
العسقلانى — تحقيق د. شعبان محمد إسماعيل — مكتبة الكليات
الأزهرية — ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م — القاهرة . .
- ٨ — جامع العلوم والحكم شرح الأربعين النووية — لابن رجب —
نشر دار الافتاء السعودية — (د . ت) . .

- ٩ - حلية الأولياء - الدار السلفية - بيروت - (د . د .) .
- ١٠ - الدارس في أخبار المدارس - للنعماني - مطبعة الترقى بدمشق -
سنة ١٣٦٧ هـ . .
- ١١ - دلائل النبوة / للبيهقي / وثق أصوله وخرج حديثه وعلق عليه / د.
عبد المعطي قلعجي / دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - طبعة
أولى ١٩٨٥ م ١٤٠٥ هـ . -
- ١٢ - الزهاد الأوائل - د ، مصطفى حلي / دار الدعوة للطبع والنشر
والتوزيع طبعة أولى - الاسكندرية - محرم ١٤٠٠ هـ - ديسمبر
١٩٧٩ م . .
- ١٣ - زاد المسير في علم التفسير - لابن الجوزي - طبعة أولى - الناشر
- المكتبة الإسلامية ببيروت - ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م . .
- ١٤ - شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل - لابن القيم
الجوزية . .
- ١٥ - صحيح ابن حبان / للأمير علاء الدين الفارسي - قدم له كمال يوسف
الجوت - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - (د . ت) . .
- ١٦ - ظلام من الغرب - لمحمد الغزالي - مصر - دار الفكر ١٩٧٥ م . .
- ١٧ - فيض التقدير شرح الجامع الصغير / للنسائي / المكتبة التجارية
الكبرى - مصر ١٣٥٧ هـ . .
- ١٨ - كتاب الروح - لابن القيم الجوزية - دار الفكر للنشر - عمان
سنة ١٩٨٥ م .
- ١٩ - كيف عالج الإسلام مشكلة الفقر / د . يوسف القرضاوي -

الناشر دار القومية للطبع والنشر - بيروت - الطبعة الأولى

١٣٧٦ هـ - ١٩٦٦ م ..

٢٠ - المكتب الحديثية الستة .

٢١ - مقالة للدكتور محمد صالح في الفكر الإقتصادي العربي في القرن

الخامس عشر الميلادي

٢٢ - المستدرك للحاكم النيسابوري - دار المعرفة للطباعة والنشر -

بيروت (د . ت) ..

٢٣ - موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان - المطبعة السلفية ومكتبتها

- مصر (د . ت) .

٢٤ - مسند الإمام أحمد - المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ودار

صادر - بيروت (د . ت) ..

٢٥ - مقامات الحريري - المكتبة التجارية الكبرى - شارع محمد علي

بمصر - (د . ت) ..

٢٦ - المجموع شرح المذهب - للإمام النووي - مطبعة الامام -

القاهرة - (د . ت) .

٢٧ - موسوعة الاقتصاد الإسلامي - للدكتور عبد المنعم الجمال - دار

الكتاب اللبناني - دار الكتاب المصري - ١٤٥٠ هـ - ١٩٨٠ م ..

٢٨ - المفودات للراغب الاصفهاني - دار المعرفة للطباعة والنشر -

بيروت - لبنان - تحقيق محمد سيد السكيلاني (د . ت) ..

٢٩ - الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير / جلال الدين

السيوطي - دار الكتاب العربي - بيروت - (د . ت) ..

(١١ - الفكر الإقتصادي)

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	* * مقدمة
٩	* مدخل البحث : ويشمل على :
٩	— حياته
١١	— حالة مصر الاقتصادية
١٣	— مؤلفاته
١٥	— وماذا فى الكتاب
١٩	— وقفة تقويم للدلى
٢٤	— وقفة حول التراجم
٢٧	— موقف الفقراء من فقرهم
٣٣	* مذاهب الناس فى الفقر
٣٩	* ما هو الفقر
٤٠	* والفقر نسبي

الفصل الأول

٤٣	البعد العقدى لمشكلة الفقر
٤٥	— مقدمة
٤٨	— أولا : عقد الفقير القضاء والقدر والرد عليه
٥١	— ثانياً عذر الفقير التوكل على الله والرد عليه

الصفحة

الموضوع

٦٩ — ثالثاً : عذر الفقير الزهد والورع والرد عليه

الفصل الثاني

٧٣ الآثار السلبية للفلاكة (الفقر)

٧٥ — المفلوك ضيق العطن

٧٦ — المفلوك مقهور ومكره

٧٦ — المفلوك حاقد

٧٨ — المفلوك حاسد

٨٠ — المفلوك يقع في أعراض الناس

٨١ — الفلاكة ستر المحاسن

٨٥ — الفلاكة سبب للآلام العقلية

٨٨ — الفلاكة تؤدي إلى البطالة

٩٢ — المفلوك مولع بالأسفار

٩٤ * مناقشة الدلجى في الصفات السابقة

٩٧ * سلبيات أخرى للفقر لم يذكرها الدلجى

١٠٠ * الفلاكة المالية والفلاكة الحالية

الفصل الثالث

١٠٣ أسباب الفقر والفلاكة

١٠٥ * — من المسؤول عن الفقر

١٠٦ — التجارة

الصفحة	الموضوع
١١٠	— الزراعة
١١٣	— الصناعة
١١٥	— فقد التناسخ والتعاون
١١٥	— سوء الإنفاق وعدم الرشدية
١١٧	— عامل الزمن
١١٧	— الامارة
١١٨	— وجوه المعاش غير الطبيعي
١١٩	— وجوه الكسب الموروثة
١٢٠	— عوامل أنغرى من أسباب الفقر لم يذكرها الدلجى
١٢١	— الكوارث الطبيعية
١٢٠	— المعاصى ومن أكبرها الربا
١٢١	— تظالم الناس
١٢٢	— الحروب
١٢٤	— النكسات الاقتصادية
١٢٣	— العاهات الخلقية
١٢٤	— كسل الإنسان
١٢٤	— ابتلاء الإنسان من الله

الفصل الرابع

١٢٧	العلماء أكثر الفئات تعرضاً للفلاحة
	وأسباب ذلك

١٢٩	— لمنهم يتعلمون بالامانى
-----	--------------------------

الصفحة	الموضوع
١٣٠	الرد عليه
١٣٢	— أنهم يتوقعون الخير من الناس
١٣٢	الرد عليه
١٣٣	— أنهم يوغلون في الافتراضات
١٣٣	الرد عليه
١٣٤	— أنهم لا يخافون على الفضيلة
١٣٤	الرد عليه
١٣٥	— إن العلم حرفة من الحرف ومناقشة ذلك من طريقين :
١٣٦	١ — علاقة الفقر والخصى بالعلماء في نظر الدجى
١٣٩	٢ — هل يتخذ العلم حرفة وأداة للكسب
١٤٣	* وصايا للفقير من الدجى
١٤٩	* الفهارس
١٥١	— فهرس الآيات القرآنية
١٥٥	— فهرس الأحاديث
١٥٩	— فهرس المراجع
١٦٢	— فهرس الموضوعات

رقم الإيداع ١٩٩٢/٧٧٩٠

